بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم صلي وسلم على محمد.

الرواية من تأليف وإنتاج يسلم حميده.

(1)

أول مشهد

تحت جنح الظلام القاتم وصفاء الرياح الشديدة، كان الفتى يجتاز الصحراء الشاسعة بخطى ضعيفة، حذاؤه المتهالك ترك قدماه الحافيتان ترسمان آثار العبور على رمال الدهر. عيناه الجائعتان للرؤية تبحث عن شيءٍ يدله على الطريق، ولكن العتمة الفاحشة تلتهم كل معالم الأفق، محولة النهار إلى ليلٍ قاسٍ.

أحس بألم الجوع يعتصر معدته، وجفاف العطش يعصف بحلقه، ومع كل خطوة يتوغل في أعماق الوحدة والتوهان. لم يجد طريق العودة إلى أهله منذ عدة أيام، فالصحراء الممتدة أمامه كانت كفناً يغلفه ببطء.

وبينما يستلقي على التراب الجاف، تتلاشى الحياة من جسده المرهق، وتغمره رغبة الموت ليُفرِّج عنه من عذابات الترحل في هذا الفضاء الفارغ، حيث لا حياة ولا أم.

(2)

الرحلة. سالم

أنعمت الأشجار بالظل ولطف النسيم، وصوت أوراقها المتساقطة يعزف سيمفونية الطبيعة، كان سالم الشاب، يستلقي مستريحاً تحت ظلال إحدى الأشجار. استيقظ من غفوته لتساقط الأوراق على وجهه، جلس ثم مد يده ليشرب من قربة مائه بينما يشعر بالحيوية تتجدد داخله.

التقط عصاه ووقف، ومضى نحو جذع الشجرة ليأخذ خروفته الصغيرة التي ولدت في صباح ذلك اليوم. بينما يهش على أغنام والده، يخطط في داخله للعودة إلى المخيم قبل أن يحل الظلام، حتى لا يتأخر عن رحلتهم المقبلة.

وصل سالم إلى حافة مخيم الكمداني، حيث كانت الخيام قد طويت ووضعت على ظهور الجمال، والكمدانيون يتحضرون للرحيل نحو أرض أطار، مركز قيادة إمارة آدرار. وسط هذا الاستعداد الجاد، بدا واضحاً أن كل فرد في الفخظ مستعد للمغادرة. جمع سالم غنمه في مكان مخصص ووكل صديقه زيد برعايتها خلال غيابه. ثم دخل المخيم، يتفحص بحثاً عن شخص معين، وسط حركة الاستعداد والتجهيزات التي كانت تعم المكان.

كانت اللحظات تمر كالسحاب، حتى وصل إلى سالم صوتاً أحبه طوال حياته، صوت أخته الغالية كريمة، الصغيرة، التي تجلب السعادة لقلبه. وعندما التقت عيونه بعيونها، انبسطت أوجاعه بالبسمة، وهمت بالعناق بشغف.

"كيف حالك أختي؟ هل سنسافر الليلة؟" سألها سالم وهو يبتسم.

ردت كريمة بابتسامة واسعة وهي تضحك، "أنا بخير، ونعم، سنسافر الليلة. قال الشيخ إن السفر في الليل أفضل في هذه الفترة، فهو صعب نهارًا في فصل الصيف الحار." وتابعت بابتسامة مشرقة، "وأخيرًا، حان وقت احتفال القبيلة، وأنا سأحضره."

ضحك سالم وهو يرد عليها، "أنا متأكد أنه سيعجبك. أخبريني، أين هي أمي؟"

أجابت كريمة وهي تضحك أيضًا، "إنها مع حريم الشيخ الشيباني، تعمل مع الخادمات الأخريات في التجهيزات للرحلة."

ابتسم سالم لكريمة وأخذ بيدها، ثم توجه الاثنان معًا نحو مكان وجود والدتهما. وعندما وصلا، وجدا والدتهما مع الخدم يطوون بعض الخيام، فابتسمت والدتهما حين أبصرتهم، فأسرع سالم ليسلم عليها ثم بدأ في تقديم المساعدة في رفع الخيام على ظهور الجمال. وبعد ساعة من العمل، اكتملت التجهيزات، فجلس سالم وكريمة بجانب والدتهما، رحمة.

"أوف، هذا العمل مرهق!" عبّرت كريمة بينما تتنفس بصعوبة.

ردت رحمة وهي تضحك وتفرك لها شعرها الأجعد، "معك حق صغيرتي، لولا سالم لما انتهينا بسرعة."

ضحك سالم وقال، "شكراً يا أمي."

مدت رحمة يدها لتضعها على خده، وقالت له، "لابد أنك جائع يا بني، سأحضر لك رغيف خبز أعددته اليوم مع السيدة زينب. كنت أحتفظ ببعضه من أجلك."

ابتسم سالم، بينما ذهبت رحمة لتحضر الخبز وجلبت معه قدحًا فيه حليب، ثم ناولته لسالم وقالت، "هيا، تناول هذا، قبل أن يأتي زيد ويأكله عليك."

انفجر كل من ســالم وكريمة ضــحكاً على قولها، فضــحكت رحمة معهم أيضــاً. وظلت العائلة الصــغيرة جالســة تتحدث لبعض الوقت، وفجأة، قطع حديثهم صــهيل حصــان خلفهم، فنظروا خلفهم ليجدوا الزعيم وصاحب السلطة في المخيم، الشيخ الشيباني. أطرق الثلاثة رؤوسهم عند رؤيته، ثم رحبت رحمة بقدومه.

"هل انتهى التجهيز يا رحمة؟" سألها الشيباني.

ردت بابتسامة واستحياء، "نعم سيدي، لقد انتهى العمل هنا، سأذهب لمساعدة الخدم في إكمال التجهيزات في خيام حريمك الأخريات يا سيدي."

قال الشيخ، وهو يلاحظ مدى تعبها "لا، لا داعي لذهابك، فليكملوا عملهم وحدهم."

"أشكرك سيدي"، قالت رحمة بصوت منخفض.

ألقى الشيخ نظرة على سالم وقال، "وأنت يا فتى، أين غنمي؟"

رد سالم، بتوتر "لقد تركتهم عند زيد يا سيدي، سأذهب الآن لمساعدته في حلبهم."

صمت الشيخ قليلاً، ثم قال، "لا، ابق مع أمك أثناء الرحلة وساعدها، سأجعل زيد وبقية الرعاة يهتمون بالمواشي."

أومأ سالم شاكرًا، بعدها صاح الشيخ الشيباني على جواده لينطلق، ورحل إلى حال سبيله. نظر أفراد العائلة الصغيرة لبعضهم وهم سعداء بما قاله الشيخ، ثم ذهبوا ليتجهزوا للسفر هم أيضاً

*

في منتصـــف الليـل، برد الجو، وارتفع القمر في الســـماء اللامعـة، وعنـدهـا انطلقت رحلـة فخظ الكمداني نحو آدرار. وكان الشيخ الشـيباني يتربع على ظهر جواده الأبيض في مقـدمـة الركـب الطويـل، الـذي يبلغ طولـه نصـــف ميل، وتـدق الطبول على طول الركب، خشية أن يتوه أحد عن الركب.

كان الكمدانيون يســيرون في مجموعات، وكانوا يشكلون خطاً طويلاً من الناس والمواشي والخيول والحمير والكلاب التي تتبعهم. كان بعض الرجال يمشون، في حين كان البعض الآخر يركبون الجمـال والخيول، وكـانـت النســـاء يركبن على ظهور الإبـل مع الأمتعـة والحوائج. أمـا العبيد والخدم، فكـانوا يســـيرون على الأقدام، وقلـة منهم فقط كـانوا يركبون الحمير. وفي المؤخرة، كـانت المواشـــي من الغنم والإبـل، وكـانت أعدادها تتجاوز الآلاف، وهنـاك عشـــرات الرعاة يسوقونها.

وكان الناس جميعاً ســعداء بهذه الرحلة، التي لا تتكرر إلا مرة واحدة كل ســبع ســنوات، وهم يتطلعون إلى ما سيجلبه لهم طريق الصحراء وما ينتظرهم في آدرار، بأمل وترقب

*

في عمق المخيم الصحراوي، وُلِد سالم، الشاب ذو الملامح الجميلة والخلق النبيل. كانت أطرافه طويلة وجميلة، وقامته تشد الأنظار بمحياه الرشيق. لمعة عيناه ببريق حمرة فاتحة، ينبعث منها الدفء والوفاء، وابتسامته تعكس بريقًا يأسر القلوب.

ســـالم وُلِد في منزل تتقاطع فيه طبقتان اجتماعيتان مختلفتان، فأمه، رحمه، كانت جارية تتبع لوالده، الذي لم يكن يتميز بالنســب العريقة فحســب، بل كان صـــاحب الســلطة العليا في فخظ

الكمداني، الشيخ الشيباني. يدير ويحمي ويرعى شؤون الكثيرين من الذين يتبعون لفخظه، لديه سبعة أبناء وبنتان من أربع زوجات، إلا سالم، الذي وُلِد من أم جارية.

في ظل ديار فخظ الكمداني، وتحت سقف القيادة التي يتربع عليها والده الشيباني، وُلِد سالم كالشمس المنتصرة بين الغيوم، ولكنه عاش يتجول في ظلال الاستبداد والظلم، حيث جاءت حياته بمزيج من الفخر والذل، فقد وُلِدَ كابن للقائد، ولكنه عاش في قيود العبودية، لم يكن يحمل سوى لقب "سالم العبد"، كانت ذراع القيادة تمتد لتحيط به كعبد للشيباني، وهكذا ترعرع وسط دهاليز الخضوع والإنكسار، ولم يعرف سالم والده إلا من خلال أمه رحمه.

ولكن على الرغم من ذلك، لم ينحني سالم لواقعه، بل استمد قوته وعزيمته من رحمه، الجارية الجميلة والطيبة القلب، التي كانت تزهو بجمالها في مخيم الكمداني، لتكون أجمل جارية بين النساء، وتورث جمالها وأخلاقها وعلمها لابنها. إنها من علمه بأسرار الدين، وجعلته يحفظ بعض آيات القرآن الكريم، ويؤدي الصلوات والصيام، مما جعله يتمتع بميزة نادرة بين العبيد، فغالبيتهم كانوا جهلة بدينهم وسلوكهم، وهذا ما جعل العبيد والخدم يحسدون ويكرهون رحمه، التي كانت محظوظة بأنها متعلمة وذكية، ولكن مصدر تعليمها وخلفيتها لا يزالان مجهولين حتى الآن في هي جارية أجنبية على الفخظ[1].

عاش ولدها سالم وسط هذا الواقع، يتعلم فن رعاية المواشي من رعاة أبيه، الذي كان يملك قطعانا كبيرة من الأغنام والإبل، ولكن كانت موهبته الحقيقية تتجلى في فن رمي الحجارة، فقد كان يصقل مهارته في ذلك خلال ساعات طويلة من التدريب أثناء رعاية الماشية، حيث يصيد الطيور والأرانب ببراعة، فكانت الحجارة التي تنطلق من يديه تصيب هدفها بدقة وتقضي عليه في لحظات معدودة.

*****

---

[1] الفخظ، يقصد بها أحد أفراع أو أقسام القبيلة

(3)

أخت من غير أم ولا أب. كريمة

ينبعث الغبار من ركب الكمدان الذي يسير نحو الأفق. فيتلاشى ذلك الغبار بسرعة تحت أشعة شمس الصباح. يتقدم الصفوف الأمامية الشيخ الشيباني، شيبه يرقص مع نسيم الصحراء، وهو يحمل عبء السنين والتجارب في عينيه. في حين يسير سالم برفقة أمه وهي على ظهر حماره العجوز الذي يحمل على كتفه عبء الأعوام والمسافات أيضا، في جو لطيف يطيب للسير والسفر.

وفي هدوء الصباح، تجلس رحمه على ظهر الحمار، تحتضن كريمة الصغيرة بين ذراعيها، حيث ترقد الطفلة البريئة بسلام محاطة بحنان وحب والدتها. تتأمل رحمه وجه الطفلة النائمة بعمق، تتذكر تلك اللحظة الفارقة التي غيرت مسار حياتها إلى الأبد.

فقد جاءت كريمة إلى هذا العالم في زمن مليء بالتحديات والصعاب، حيث خانتها الأقدار وأخذت منها والديها بوحشية. ولكن، في قلب تلك العاصفة، وجدت رحمه قوة وإرادة لا مثيل لهما، فقررت أن تكون لكريمة كل ما تحتاجه من عطف وحنان وحماية.

منذ ذلك اليوم، أصبحت كريمة جزءًا من عائلة مسالمة ومحبة، ورُزقت بفرصة للنمو والتطور في بيئة آمنة ومشجعة. وبينما تكبر، تبدي كريمة علامات الحكمة والقوة التي لا تتناسب مع سنها الصغيرة، وتبهر الجميع بعبقريتها وإرادتها الصلبة.

فهي تنظر دائمًا نحو المســتقبل بثقة وتفاؤل، محاولةً تحقيق أحلامها وتحقيق طموحاتها، برفقة الأحباء الذين وقفوا إلى جانبها في كل مرحلة من مراحل حياتها.

*****

(4)

الأمنية الأخيرة. رحمه

انتبهت رحمه فجأة من شرودها، وجلست تتأمل في البعيد، وكأنها تحاول تفسير شيء ما، لكن نبرة صوت سالم كانت كافية لتعيدها إلى واقعها. "ماذا يا سالم؟"، سألته بصوتها اللطيف الممزوج بالفضول.

سالم، الشاب الواثق الذي كان يمثل روح الرحلة، أجاب بحماس، "الشيخ قال إننا اقتربنا، لا يفصلنا سوى أربعة أميال ونصف عن وصولنا، إن شاء الله".

رحمه لم تستطع إخفاء ابتسامتها، ولكن قبل أن تستمتع بلحظة الانتصار، انتبهت إلى كريمة التي كانت ترتاح في حضنها.

"انتبهي يا كريمة، لقد تعبتُ من حملكِ طوال الليل!"، قالت رحمه بنبرة بادئة باللطف ثم انتقلت إلى السخرية.

كريمة لم تبدي اهتمامًا كبيرًا، وتمددت قليلاً وهي تتثاءب، "أريد النوم أكثر، أعلم أنكِ ستوافقين، شكراً يا أمي، أحبكِ".

لم تتحمل رحمه إزعاجها، ودفعت كريمة بقسوة من فوق الحمار، فسقطت كريمة بقوة على الأرض، مما أثار ضحكات سالم.

"لماذا فعلتي هذا؟ إنه مؤلم!"، صاحت كريمة بينما تتألم.

"أنا لا أبالي، كنت أعاني من التعب، وتألمت بسبب نومك على رجليْ"، ردت رحمه بغضب.

ثم، وبينما كانت تنهض كريمة وتنظف نفسها من التراب، عبرت عن توبيخها بابتسامة، "آسفة يا أمي، دعيني أساعدك على النزول".

نزلت رحمه من فوق الحمار، استمر الحوار حول مسابقة الشجاعة والأعراس، حيث أعرب سالم عن شغفه بالمناسبة، وأبدت كريمة حزنها على عدم مشاركة العبيد في المسابقة، لكنها لم تنسى أن تشجع أخاها بكلمات الأمل والدعاء.

وفي لحظة من الصمت العابر، توقفت رحمه لتتأمل وجه ولدها سالم، وكلمات كريمة ترن في ذهنها مثل لحن هادئ. "أنت طيب القلب، سيكون الله معك دومًا، لا تنسى هذا، توكل عليه فقط".

نظرت إليها رحمه بابتسامة، وبينما عادت لتبادل النظرات مع سالم، قالت بصوت رقيق، "ما تقوله كريمة صحيح يا ولدي".

ابتسم سالم بعفوية، وكأنما كانت كلمات الأم والأخت تضفي على وجهه مزيدًا من الإشراق. "لقد جعلكما الله معي وهذا يكفيني".

لم يمر وقت طويل حتى وجد نفسه يتلقى لطمة خفيفة على رأسه من كريمة، مما دفعه ليضحك بسعادة، ولكنه لم يتوقع السؤال القادم. "ألا تريد أن تتزوج؟"، سألته كريمة ببراءة ممزوجة بالفضول.

ضحك سالم وعبر عن امتنانه لكلماتها بإحراجه "لا تحرجيني يا مزعجة، فأنا لا أفكر في ذلك".

ردت رحمه على هذا الرفض بابتسامة خفيفة، "لماذا لا تفكر بالأمر؟ ألا تريد الزواج؟"، سألت بلطف.

ابتسم سالم في استحياء، وعبر عن توتره، "ليس الأمر كذلك، الأمر وما فيه، هو أنني لست مستعجلاً أمر الزواج".

رحمه لم تفقد الأمل، بل أعادت تأكيد أمنيتها بأن تراه سعيدًا ومتزوجًا. "حسنًا، لكن لا تتأخر في ذلك، فأمنيتي الوحيدة هي أن أراك متزوجًا وسعيدًا بحياتك".

أمسك سالم بيد والدته بلطف، وأبتسم لها بثقة، ووعد بتحقيق أمنيتها في أقرب وقت، "سأحقق لك هذه الأمنية في أقرب وقت يا أمي الحبيبة".

في تلك اللحظة المثيرة، حيث كانت الرحلة تتقدم في وادي عريض ومنخفض، فجأة توقفت الناس عن سيرهم، وتصاعد الجو من حولهم، ولكن لم يكن الجميع يعرف ما الذي يحدث، حتى انفجرت أصوات الطبول من البعيد، تصاعدت تلك الأصوات بحماس، كما لو كانت تعلن عن شيء مهم ومثير.

وبينما كان الجميع ينتظر بفضول وقلق، وإذا بظهور شخصين مجهولين مقبلين من فوق تلة في الجنوب، متجهين نحوهم بسرعة، وكل منهما يمتطي جملًا ويحمل بندقية بين يديه، ويرتديان عمامات كبيرة تغطي وجوههم.

هذا المنظر أثار الذعر والرعب في قلوب الناس، حيث لم يكن أحد يعرف ماذا يمكن أن يحدث.

ولكن حينما رأى الشيخ هؤلاء الراكبين، تجاوزت قوة إرادته الخوف، وسارع نحوهم على جواده، ووجه بندقيته نحوهم ففعل الراكبان نفس الشيء، فكانت الردة الطبيعية للناس هي الخوف والرعب.

ولكن حدث ما لم يكن أحد يتوقعه، ففي لحظة مثيرة، رفع الثلاثة رؤوس بنادقهم وأطلقوا النيران نحو السماء، مما أثار الذهول والدهشة، حيث ظن البعض أن الشيخ قد أصيب ولكن، لم يكن هناك

إصـابات، بل كان الثلاثة سـالمين، وبدأوا في الضـحك، ونزلوا جميعًا للأرض وتعانقوا. ليتبين للجميع أنهم أصحاب الشيخ القدماء، بالأخص رجل اسمه بدري. وهذا الاستقبال كان جزءًا من عادة الترحيب هؤلاء الأصدقاء.

وفيما كـان الجميع يتجمعون ويتبـادلون التهاني، كانت هذه الأحداث مثيرة بالنسـبة لبعض الوافـدين الجـدد من الكمـداني، وخاصـة الأطفال مثل كريمة، الذين كانوا يشـاهدون كل تلك الأحداث بعيون مليئة بالدهشـة والحماس. واصـل الركب تقدمه، وكلما اقتربوا أكثر من التلـة، زاد إعجابهم بمشـهد مخيم الإمارة الذي بدا كـالمدينة الفـانيـة، ممتـداً في جميع الاتجـاهـات بأخشـاب الخيام الراقصـة على نسـمات الهواء. توغلت أصـوات المتحدثين وتلاوة القرآن وأصـوات المـاشـيـة في أعماق أذهانهم، بينما تنبعث الروائح اللذيذة من اللحم المشوي، والطبخ، وروائح التمر الطازج والبلح.

سحر المكان لم يكن محصوراً في البهاء الطبيعي فحسب، بل امتد أيضاً إلى الضيافة والترحيب الذي لاقوه من سكان المخيم. حين نزلت النساء والأطفال والرجال من الركب، بدأوا ينتشرون في المخيم مثل نسيم الربيع، مع كل خطوة تفجرت قصص وعلاقات جديدة.

وسط هذا الجمال والحياة، كان سالم وكريمة يقفان مذهولين، فلم يسبق لهما رؤية هذا العدد الهائل من البشر والخيام الراقصة في الهواء.

إنها لحظة فريدة في تاريخ القبيلة، حيث يتجمع الأفخاظ الثلاثة الكبرى لأداء عادة القبيلة، أو ما يُعرف بعرس القبيلة. يهدف هذا الاحتفال القديم إلى تعزيز الروابط وتعميق العلاقات بين أفراد القبيلة.

وبينما يتجمع الأفخاظ تحت راية واحدة، تذكر الأجيال القديمة كيف كانت الخيام الكبيرة متحاربة من قبل، حتى جاء شداد الأكبر ووضع حداً لتلك الحروب وجمعهم في قبيلة واحدة، فأصبحوا واحدا تحت سماء واحدة.

في عمق أراضي القبيلة، تتجلى قصة الثلاثة أفخاظ يحملون بين جوانبهم ماضٍ ثرٍي وحاضرٍ متلألئ، فيروي كلٌ منهم حكاية تعانق القلوب وتهز الأرواح.

فخظ أولاد جلفون، ذلك الفخظ الذي يحمل في جعبته قوةً لا مثيل لها بين الثلاثة، حيث يعجز الكلام عن وصف قوتهم الغاشمة. وفي طيات تاريخهم، تنبثق سلالة الأمير التي تحظى بتبجيل الجميع. يقودهم الشيخ أحمد، الرجل المسن ذو القلب القاسي، الذي يدير الأمور بيد من حديد، وتتسلل من عينيه نيران القوة والصلابة.

أما فخظ أولاد سيدحمد، فهم من أبرز الأفخاظ التي يهتم الآخرون بها في عرس القبيلة. إذ يتمتعون بجمال لا مثيل له يأسر قلوب الناظرين، وتنبثق من أعماقهم دماء نقية تميزهم بطهارة فريدة. يقودهم رجل غامض يُدعى الفرفار، يتمتعون بسحرٍ لا يُضاهى، وسط غموض يحيط بشخصيتهم وأسرارهم.

وفي الختام، يأتي فخظ الكمداني، الذي على الرغم من عدم تمتع أفراده بالقوة الجبارة أو الجمال الساحر، إلا أنهم يشكلون عصبة رجال القبيلة وفخرها فكرمهم وشجاعتهم اللافتة.

يُعتبرون دائمًا محط إعجاب الجميع، فغالبية رجال الحرب في القبيلة من الكمدانيين، الذين يتميزون بالشجاعة والجرأة بشكل استثنائي. ومن بينهم، شيخ الفخظ نفسه، الشيخ الشيباني[2] ابن مرحب، سليل الكمداني الأكبر، والذي فاز ببطولة الشجاعة وأثبت شجاعته وتفانيه في خدمة القبيلة.

*****

[2] الشيخ الشيباني هو زعيم أو شيخ الفخظ

وله أربعة زوجات:

زينب وأولدها ثلاثة: الكبير محمد والثاني عبدو والثالث سيدنا

مني وأولادها اثنان: عمر والحسن

عيشه ولها ولد واحد: المختار وهو الأصقر سنا

خديجة ولها بنتان: مريم وفاطمة

وترتيب أبناء الشيباني هو:

محمد، عبدو سيدنا، سالم، عمر، الحسن، مريم، فاطمة، المختار

(5)

الأمير عثمان

بعد وصـــول الكمدانيين إلى أراضـــي العرس، تقدموا بثقة وعزم متجهين نحو الرقعة الواســـعة التي كانت مخصـــصـــة لإقامة مخيمهم، وســـط حمـاس لا يُضـــاهى ينبعـث منهم كموج البحر الجارف. الهواء المنعش يحمل معه نسمات الفرح والترقب، بينما تترقب العيون المليئة بالشـــغف المشهد الذي ينتظرهم.

في الوقت نفسـه، لم يتوانَ الشيخ الشيباني ورجاله المخلصـــين، برفقتهم ابنـه الكبير محمـد، عن الانطلاق بخطى ثـابتـة نحو وســـط المخيم، حيث توجد خيمـة الإمارة والأمير عثمان، ليقدموا التحية والهدايا بكل احترام وتقدير للأمير وقيادته.

وعند وصـــولهم إلى خيمـة الإمارة، بـادر الشـــيباني بتبادل التحيات مع من تلقاه من الأفخاظ الأخرى وبعض الرجـال المهمين. الأمير عثمـان كـان يتـأمـل الحضـــور بعيون مليئـة بـالثبـات والقوة، مُعتمدًا على ســـريره الفاخر الذي يرتقي علوه في قلب الخيمـة الملونة بألوان الجمال والقوة.

نظر الشـــيباني إلى الأمير، الذي تنبعث من جســـده القوة والعزيمة، عيونه الحادة تشـــع بنور الحكمة والصلابة، فكانت كلماته تنطلق بقوة وجبروت، مملوءة بالحكمة والتفاؤل، وكان صوته يُسمع كصوت أسد جارح يملأ المكان بالاحترام والخوف.

وعلى الرغم من هذه السمات القوية، إلا أن عثمان كان رجلا كريمًا وسخيًا، يعمل بجدية لرفعة قبيلته وســـعادة أبنائها، مما جعله محط احترام وتقدير الجميع في القبيلة، وقائدًا يحمل في قلبه الحب والقوة والعدالة.

تقدم الشيخ الشيباني بوجهه العتيق، وكأن كل تجاعيد الزمن التي نقشتها السنين قد حملت قصة لا تنسى. وقف الشيباني أمام الأمير، وملأ بالصمت الخيمة الفسيحة، قبل أن يفتتح الحديث بكلماته الرقيقة.

"السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، يا أميرنا الكريم، أطال الله في عمرك وأصلح عملك وذريتك."

رفع الأمير عثمان رأسه ببهجة، وقام ليستقبل الشيخ بحضن دافئ، يعكس تواضعه ومحبته.

"وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، يا أخي العزيز، ما أخبارك؟ أدامك الله لماذا لم تزرني منذ عام؟ كيف كانت رحلتك وما حال أهلك؟"

أجاب الشيباني بود وتواضع، متحدثاً عن جهود الرحلة وصعوباتها، ومعرباً عن اشتياقه الشديد للأمير. قالها بود، ونبرة تنبعث منها الحكمة والعظمة.

وفي لحظة من الفهم والتضامن، تبادل الأمير والشيباني الابتسامات، وتبادلا العتاب والاعتذارات عندها انضمت الأسرتين النبيلتين، حيث نهض كل من شيخ فخظ أولاد جلفون وشيخ أولاد سيدحمد، "وماذا بشأننا يا شيباني، ألا تحية لنا؟" تساءل شيخ أولاد جلفون بصوت يحمل شرارة الانتظار والاستغراب، وهما يتطلعان إلى عيون الشيباني بقوة.

أجاب الشيباني برده العابر، وهو يرفع نظره إليهما بضحك متواضع: "سلام الله عليكما يا أخواي، اعذراني، مع أني مشتاق للأمير لم أغفلكما أبدا."

ثم تقدم الشيباني بخطوات مترددة نحوهما، امتزجت التحية بينهم بدفء، والسلام استقبل بقلب مفتوح، ولكن وسط هذه اللحظة المؤثرة، كان الضجر يلوح تحت الابتسامة، والغضب يتخفى في أعماق العيون، ولكنهم استمروا في تبادل الضحكات والأحضان، مخفين مشاعرهم خلف الستارة الرقيقة للعادات والتقاليد، والاحترام للأمير.

وقف الأمير وسط حشد الشيوخ والشباب، وبهجة تملأ عينيه، رفع صوته بكل جلال وهيبة: "حللتم أهلاً ووطئتم سهلاً، يا أحبّتي وأهل الخير والمحبة".

ضحك الحاضرون بمدى سعادتهم بترحيب الأمير، وتبادلوا التحية بكل ود وتقدير. جلس الأمير على سريره العتيق، وهو يراقب أبناء قبيلته بعينين حانية.

"بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين"، بدأ عثمان خطابه بتلاوة آيات من القرآن الكريم، مستحضراً بذلك بركة الله ورحمته على هذا الجمع المبارك.

وأكمل بعد ذلك، وهو ينظر إلى وجوه الحضـــور بثقة وتفاؤل: "الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، أما بعد".

وبينما تناثرت كلماته في الهواء، تفاعل الحاضرون بانتشاء، ملأ أرواحهم بالأمل والتفاؤل، فقد كانت كلمات الأمير مثل نسمة عليلة في حقل مزهر، تنعش القلوب وتسكب السرور.

"إخوتي، إننا اليوم نجتمع لنحتفل بعام الفرح والتواصـــل، حيث نجمع بين أفراد قبيلتنا برباط الألفة والمحبة، ونحيي تقاليدنا العريقة بإقامة الجزيات والأفراح"، أوضح الأمير، وهو يتحدث بصوت ملؤه الحماس والحب لقبيلته.

"فلنجعل هذا العام عام الزواج والتواصل، ولنسدد بين شبابنا وشاباتنا طريق الزواج والتفاهم، وفقاً لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم"، استمر الأمير، وهو يتبسم بثقة وتفاؤل، مطالباً بدعم الشيوخ وتشجيع الشباب على الزواج وتكوين الأسر.

وفي ختام كلمته، أعلن الأمير عن إقامة بطولة الشـــجاعة، لتكون مناســـبة لتعزيز روح التآلف والتضـــــامن بين أبنـاء القبيلـة، مؤكداً بـذلك اســـتمرارية الروابط الوثيقة بينهم، في عهد الفرح والسرور، بما يحقق لهم السعادة والرفاهية في ظل حماية الله ورعايته.

انتهى حديث الأمير، فانتشــــرت الهدوء والســـكينة بين أروقة الخيمة الفســـيحة. وبعدها تفرق المجلس تدريجياً، وتوجّه كل شيخ إلى مخيمه بخطوات ثابتة وهو ينقل بحماسـة وتفاؤل كلمات الأمير إلى أتبـاعـه. ومع وقت الليل الذي حل ببطء، اختلفت نهايات الناس: فالبعض انغمس في عالم الأحلام، بينما بقي البعض الآخر مسـتيقظاً، يلاعب أفكاره أو يسـتمتع بلحظات المتعة مع جماعات الليل.

*****

(6)

أبناء الأمير

في صباح اليوم التالي، وعندما أضاءت أشعة الشمس الأولى خيمة الأمير عثمان، حيث كان جالسًا في خيمته، وبجانبه زوجته السيدة فاطمة، ومعها آخرون ينشغلون بالحديث عن الترتيبات الدقيقة للبطولة القادمة.

كانت الأجواء مليئة بالتوتر والترقب، وكانت الشمس ترقص على أطراف السحب المتناثرة في أفق السماء الزرقاء.

وفي لحظة ما، توقفت كل التحضيرات، عندما حضر أبناء الأمير للانضمام إليه. كان أبناء الأمير شبابًا واعدين، وكل واحد منهم يتمتع بشخصية فريدة وجاذبية خاصة.

صلاح، الأكبر منهم، كان مثالًا للشجاعة والعلم، وكان يتألق بمعرفته الواسعة وحبه للمغامرة، ونال مؤخرا منصب خلافة أبيه.

أما عبد الفتاح، فكان يتميز بقوته الجسدية وعزيمته الصلبة، وكان يبدي اهتمامه بالقتال والمغامرة، ورغم ذلك كانت لديه شغف للجمال وله قلب يتوق للحب الحقيقي، الذي ناله بعد سعي.

أما الابنة الوحيدة، زهراء، فكانت محبوبة أبيها وكنز عينيه، وكانت جميلة بمقاييس الناس وقلوبهم، فقد ذكرها الشعراء والمغنون في القبيلة بجمالها وأنوثتها، وكانت متدينة وخلوقة ومحتشمة، وقضت معظم وقتها في صحبة أمها أو صديقتها الوفية، وكان والدها يدللها ويفاجئها بالهدايا، ومن بين تلك الهدايا كانت قطعة أرض مليئة بالنخيل والأشجار والزهور العطرة.

جلس الأمير عثمان على سريره الفخم، وسط تجليات الضوء الناعم التي اخترقت خيمته الفاخرة، وهو يراقب أبناءه بابتسامة دافئة تعكس حنانه واهتمامه بهم. ثم فتح لهم الحوار بكل رقي وأسلوب قيادي.

"كيف حالكم يا أبنائي؟"، سأل الأمير بصوت ينبض بالود والاهتم

"نحن بخير، يا سيدي"، أجاب صلاح بثقة واطمئنان، وكانت عيونه تشع بالعزم والإصرار.

نظر الأمير إلى عبد الفتاح بابتسامة خفيفة، وسأل بصوت تملؤه الحكمة والاهتمام: "هل أنت مستعد؟"

بدت ابتسامة عبد الفتاح واضحة وهو يرد بثقة: "بالطبع، أنا دائمًا مستعد، يا سيدي".

ابتسم الأمير براحة وثقة، ووجه كلماته بحكمة وتأنيب: "صلاح، ستذهب مع الرجال لتساعدهم في التحضير للبطولة في وادي النخيل".

"حاضر، يا سيدي"، رد صلاح بثبات واستعداد تام، ثم خرج ليباشر مهمته بنفس الحماس والعزيمة.

بعد أن أنهى حديثه مع صلاح، التفت الأمير إلى زهراء بابتسامة ودية، وسألها بحنان: "وأنتِ يا فتاة، هل كل ما طلبته جاهز؟"

ابتسمت زهراء بفرح وهي تجيب: "نعم، كل التمور والبلح التي طلبتها من حديقة النخيل الخاصة بي جاهزون، في انتظار من ينقلهم إلى الساحة".

رد الأمير بابتسامة راضية، ووعد برعاية المهمة قائلاً: "أحسنتِ، سأرسل الرجال لينقلوها، وأما أنتِ فستبقين هنا مع أمك، وتجهزي للذهاب إلى الساحة".

"حاضر يا أبي"، ردت زهراء باحترام وتقدير، وهي تثبت قناع وجهها.

بعدها غادر الأمير عثمان خيمته وفي طيات روحه راحة وثقة، وبرفقته عبد الفتاح، متجهين نحو مغامرة جديدة تنتظرهما في وادي النخيل الخلاب.

*****

(7)

أثبت نفسك

في ذلك الصباح الهادئ، حيث تتلألأ أشعة الشمس الأولى على أراضي مخيم قبيلة أولاد شداد، خرج سالم وهو يعبق بشبابه وحيويته إلى أراضي الرعي. برفقة رعاة الإبل، بدأوا مهمتهم اليومية في حلب اللبن، وسط أجواء هادئة تملؤها نغمات الطبيعة وهدير الإبل.

وبعد أن انتهوا من مهمتهم، عاد سالم إلى المخيم وهو يحمل حمولته من اللبن، بصحبة بعض أصدقائه من العبيد، بينهم صديقه الوفي زيد. وفيما كانوا يتجادلون بشأن البطولة القادمة التي ستُقام في وادي النخيل، حيث تتبارى القلوب وتشتعل الشجاعة، شعروا بنفحة من الحزن، فقد علموا أن بعضهم لن يتمكن من الحضور، كما هو الحال بالنسبة لسالم الذي كان سيضطر للبقاء مع الإبل في هذا اليوم.

وعندما اقتربوا من المخيم، سمع سالم صوت كريمة وهي تصيح باسمه بينما تركض نحوهم، تحمل في وجهها آثار القلق، وتناديهم بكل قوتها المتواضعة، مخبرةً إياهم بأن الشيخ الشيباني يستدعيهم جميعًا لأمرٍ هام.

في سرعة هائلة، سار سالم وزملاؤه وكريمة التي كانت تمسك بيده نحو مقدمة خيمة الشيخ. وعند وصولهم، وجدوا جميع العبيد يقفون أمام الخيمة، متهامسين فيما بينهم، فوقفوا برفقتهم وانتظروا حتى يحضر جميع العبيد، وكان هناك بعض الناس يقفون أمام خيامهم ينظرون باستغراب. وبعد لحظات، خرج الشيخ الشيباني ووقف في مقابل عبيده، وكان عددهم ثلاثة وخمسون، وكان معهم تسعون آخرين من عبيد أهل الخيام الأخرى في الفخظ.

رفع الشيخ أكمامه ببطء، كما يفعل دائمًا عندما يقترب من لحظة مهمة، وأعلن بصوته الرنان الهادئ: "السلام عليكم ورحمة الله وبركاته."

كانت هذه الكلمات كفيلة بتهدئة أعصاب الجميع. رد العبيد بتواضع: "وعليكم السلام يا شيخ".

عندها جاء الإعلان المهم، حيث أعلن الشيخ عن إقامة مسابقة الشجاعة، وأخبرهم أن الأمير قد أبلغه بأنه سيتم إشراك بعض العبيد في المسابقة. بدا العبيد مندهشين، ولكنهم في نفس الوقت شعروا بالفرح والحماس.

"ستتنافسون مع المتسابقين من الأحرار، والفائز سيحظى بالحرية والزواج، بالإضافة إلى مكافأة مالية كبيرة"، أوضح الشيخ بكل وضوح.

وفي حين كان الجميع يتأملون في هذه الكلمات، بدأ الشيخ في اختيار الخمسة المشاركين بطريقة عشوائية لتجنب أي اتهامات بالتحيز.

وعندما وصل الدور إلى سالم، شعر بالخوف يتسلل إلى قلبه، فعاد خطوة للوراء عندها توقف الشيخ أمامه وكأنه يستشعر خوفه، ثم قرر اختياره ليكون واحدًا من المشاركين. كانت هذه اللحظة مفاجأة للجميع، وخاصة لسالم الذي شعر بالفخر والحماس في الوقت نفسه.

وفي لحظة اندهاش، أخذت أخته كريمة تركض نحوه وتحتضنه بقوة، بينما تراقبهم والدتهما بابتسامة فخورة.

بعد ذلك، غادر الشيخ وركب جواده. ومعه الأربعة المشاركين من الكمادني[3] ومنهم ابنه الكبير محمد، ومعهم الخمسة المختارين من العبيد، وساروا باتجاه وادي النخيل، حيث كانت مسابقة الشجاعة تنتظرهم ويتطلعون لها بفارغ الصبر، وكانوا جميعًا مستعدين للتحدي القادم واغتنام هذه الفرصة الذهبية.

*****

---

[3] الكمداني اسم خيالي

(8)

خلف كل رجل عظيم امرأة

تجاوزت الساعات الأولى من صباح اليوم، فدوت أهازيج الطبول وارتفعت أصوات الأهالي من الكمدانيين والأفخاظ الأخرى، وهم في مسيرة عظيمة إلى وادي النخيل حيث ستقام مسابقة الأمير. وبعد مسيرة قصيرة، ظهر وادي النخيل أمامهم، كان كبيرًا وممتدًا في جميع الاتجاهات. بين الحشود كانت رحمة وكريمة، تسيران بيدٍ واحدة، متجهتين نحو ساحة الوادي عبر ممر رملي طويل بين غابات النخيل.

رحمة كانت ترتجف خوفا على ابنها المشارك في المسابقة، وفي الوقت نفسه اعتراها غضب شديد من الشيخ الشيباني لاختياره له، ولكنها لم تتح لها الفرصة لمقابلته، لذلك كانت تضع جهدها في الدعاء. وبينما كانوا يسيرون، تصاعدت فجأة أصوات الطبول من بعيد، فتحمس الناس وسارعوا في سيرهم وبدأ بعضهم يهرولون. كلما اقتربوا، اشتدت أصوات الطبول والجماهير تحتشد بكثرة. حيث يحضر لهذا الحدث الكثير من الناس، ليس فقط من قبيلة أولاد شداد، بل من القبائل أخرى التابعة لإمارة آدرار.

عندما وصلت رحمة وكريمة، أصابتهم الدهشة فالمنظر كان عجيبًا، الناس كانوا يعدون بالآلاف وأصواتهم تهز المكان، وكان الجو مليئًا بالمرح والحماس. الناس يتبادلون الحديث والضحكات، والأطفال يجرون في كل مكان، والعازفون يعزفون على الطبول والمزامير والتيدنيت[4]. فجأة، قطعت تلك الفوضى والحركة العشوائية حين دق الطبل العظيم فهدأ الناس، لقوة صوته الذي كان كبيرًا جدًا، بعد لحظة قصيرة دق الطبل مرتين مؤكدًا بأنه يجب إفراغ الساحة كما تعود الناس. فتفرق الناس في جميع الاتجاهات حتى خلت الساحة، وجلسوا تحت ظلال النخيل. دق الطبل ثلاث مرات أخرى إشارة على وصول الأمير والشيوخ والشخصيات الهامة، بما في ذلك الأغنياء والتجار والعلماء، وزوجاتهم وبعض أبنائهم. عندما دخلوا الساحة، بدأ الناس يهتفون لهم ويستقبلونهم بالترحيب والتصفيق.

---

[4] التدنيت هي لآلة موسيقية تشبه الغيتار

في ظلال الخيام الكبيرة الثلاثة، تجمعت الشخصيات المهمة، حيث جلس الأمير بين الشيوخ الثلاثة، وبجانبهم بعض أبنائهم الصغار وزوجاتهم، كان الحضور يشمل أيضًا ابن الأمير البكر، صلاح، وبنته زهراء أيضا. بعد لحظات من الانتظار، خرج الأمير إلى منتصف الساحة الرملية، فسكت الجميع ليستمعوا إلى كلمته. بدأ الأمير بصوت يجذب الأنظار: "بسم الله الرحمن الرحيم، الآن وقد حضر كل الناس، اليوم سيتنافس شبابنا الشجعان لإثبات صلابتهم وقوتهم، والأهم من ذلك شجاعتهم وقدرتهم على التضحية."

أضاف بجدية، "وفي هذا العام سنزيد من التحدي، وكذلك سيكون هناك مشاركون من العبيد، وإن حدث وفاز أحدهم، فسيعتق ويكافأ بسخاء."

صاح الحضور بصوت متحمس وصفقوا بحماس، رافعين أمالهم بما سيأتي. رفع الأمير يده ليسكت الجميع، وأعلن بجدية، "الآن لنتعرف على المتسابقين، أولًا."

في لحظة مهمة بتاريخ المسابقة، أُعلنت قائمة المتسابقين بتفاصيلها المثيرة. بدأت بفخذ جلفون، حيث ضمت الصفوف أبناء الشيخ أحمد الثلاثة، ورجلين آخرين، بالإضافة إلى ثلاثة عبيد، كلهم كبار الحجم ومنبعثين بقوة لا مثيل لها. ثم جاء دور فخذ سيدحمد، حيث شمل المتسابقين واحدًا من أبناء الشيخ، وعبدين، وستة رجال من الفخذ، يتمتعون بحس الشجاعة والإصرار. ولم يُنسى فخذ الكمداني، حيث تألق ابن الشيخ الشيباني الكبير، برفقة ثلاثة شباب، وخمسة عبيد، جميعهم يتميزون بحضور قوي وشجاعة لا تلتوي.

وبين هذه الأسماء البارزة، ظهرت السمة البارزة للجبروت والشجاعة اللافتة للنظر، عبد الفتاح، الفائز الأصغر في تاريخ المسابقة، خلال آخر دورة لها. بعدما أعلن عن اسمه، دخل الساحة وصرخ بصوت عالٍ يتجاوز حدود الحماس، فهتف الجمهور بتحية مليئة بالإعجاب والإعجاب. عبد الفتاح، مثل والده، طويل القامة وممتلئ الجسم، وقوي البنية، حتى أنه اكتسب سمعة بأنه يمتلك قوة لا يستهان بها، إذ يُقال إنه كان هناك جمل ثائرًا، وكاد الرعاة يفشلون في التعامل معه، إلى أن جاء عبد الفتاح وصفعه على رقبته بقوة، فسقط الجمل ميتًا بعد الكثير من المعاناة والألم، وهذه واحدة من القصص الكثيرة التي برهنت عن قوته، وجعلت الجميع يكنون له الإعجاب والإكبار.

في أرجاء الساحة، حيث تسود الحماسة والاستعدادات، أطل الأمير بجلاله، يحمل بين طيات كلماته وعظمته وعدًا جديدًا بما ينتظر المتسابقين في جولتهم الأولى. "الجولة الأولى ستكون عبارة عن سباق العدو السريع،" أعلن الأمير

"وسيكون التسابق حول حافة الساحة الستديرة لعشر دورات، وأول خمسة عشر شخصًا يكملون الدورات ينتقلون للجولة الثانية، والبقية سيتم إقصاؤهم من المسابقة. استعدوا، فسنبدأ الآن."

كان الجميع يستعد بتركيز وحماس، ولكن سالم الذي يتمتع بقوة هادئة، بدا مرتبكًا للغاية من مظهر الرجال الأشداء المحيطين به. على الرغم من صغر سنه الذي يكون في نصف عقده الثاني، إلا أنه كان يمتلك جسمًا طويلا قويًا ورجوليًا، مشدود الوسط، وطويل الساقين والذراعين. كان مرتبكا في تلك اللحظة الحرجة، حتى سمع صوتًا يحمل له الكثير من المعنى، صوت أمه رحمه وأخته كريمة، وهما تناديانه وتلوحان. سارع سالم بالركض إليهما، وعندما وصل، احتضنته أمه وقالت له بابتسامة، "كريمة لديها شيء تريد إخبارك به."

انحنى سالم لكريمة، فاقتربت منه وهمست له في أذنه، فابتسم عندما انتهت. ثم قالت ببهجة: "أنت لها، يا أخي، هيا انطلق بسرعة."

انطلق سالم مسرعا وهما تهتفان وتصفقان له، وهو ينطلق بعزم نحو التحدي الجديد، وسط تشجيعهما الملهم. بينما كان سالم يتأمل فيما يخطط له لاحظته الأعين الحادة لأخيه محمد، الذي لم يتأخر في الاستفسار عن سر الأمر. "ماذا هناك يا سالم؟" سأل محمد بفضول.

رد عليه سالم بترتيب: "فلتتجمعوا وتحيطوا حولي." وعندما انتهوا وقاموا بتشكيل دائرة حوله، همس لهم بكلمات أثارت ضحكهم وحماسهم، بعد انتهائها.

وفي تلك اللحظة، لم يفوت عبد الفتاح ملاحظة هذه الحركة، فانعكست التساؤلات في عقله: "ما الذي يخطط له هؤلاء الضعفاء؟"

في لحظة مهمة من أحداث المسابقة، دوى صوت بندقية الأمير فنظر الجميع في ترقب وانتباه. "ليستعد المتسابقون،" أعلن الأمير بحنكة وثقة.

وقف الستة وعشرون رجلاً في ثلاثة صفوف، مستعدين لتحدي الجري. حمل الأمير بندقيته وأشار لهم بأنه سيطلق النار، فاستعدوا، فضرب النار في الهواء، فانطلق الجميع بسرعة شديدة، وفي مقدمتهم عبد الفتاح، الذي كان يبدو أسرع مما يبدو عليه. ولكن سالم ورفاقه كانوا يجرون ببطء مثير في مؤخرة المتسابقين.

وقف الشيخ الشيباني في حالة من الذهول والغضب قائلا "ما هذه المهزلة"

لكن الأمير ابتسم وقال: "ربما هذا نوع من التكتيك."

في الوقت نفسه، صفقت رحمة وكريمة، مشجعتين سالم، بينما كان عبد الفتاح يجري بسرعة. وجد نفسه فجأة أمام سالم ورفاقه الذين كانوا يجرون ببطء، فبدأ يتساءل عن الخطة التي اعتمدوها.

قال محمد بقلق: "هل أنت متأكد من كلامك يا سالم؟"

أجاب سالم بثقة: "اصبر، يا سيدي، أنا متأكد."

وعندما وصل المتسابقون الآخرون لخمس دورات، وعبد الفتاح لسادسة، بدأ التعب يظهر عليهم، وبدأوا يتباطؤون في الجري.

قال محمد: "هل حان الوقت؟ نحن في الدورة الثالثة فقط."

أجاب سالم: "اصبروا قليلاً بعد."

وعندما وصل الآخرون للدورة السابعة كانوا يجرون ببطء شديد إثر الإنهاك، عندها هتف سالم بقوة لفريقه: "فلتتجاوزوهم الآن!"

عندها وبكل حماس بدأ فريق الكمداني يتســارعون بكل قوتهم، ويتجاوزون الآخرين واحداً تلو الآخر.

وعندما رأى الآخرون هذا التسارع، بدأوا يسرعون أكثر. ولكن بدون جدوى فقد تملكهم التعب. كان سالم ينطلق بأقصى سرعته، يتجاوز زملاءه والمتنافسين الآخرين واحداً تلو الآخر، محققًا نجاحًا مذهلاً ومدهشًا.

عندما لاحظ عبد الفتاح تقدم ســالم نحوه، شــد على أســنانه بقوة وقال في نفســه "هكذا إذاً!" ثم أسرع بكل قوته، وكان ذلك في نهاية الدورة الثامنة.

بينما استمر سالم في إكمال سبع دورات، وتجاوز عشرة متنافسين بفضل سيقانه الطويلة التي جعلته يجري بخطوات طويلة وخفة وســرعة فائقة. حاول بعض المتنافســين عرقلته، لكنهم لم ينجحوا، فكان يتجنبهم بسرعة أو قفز فوق رؤوسهم برشاقة فائقة.

وفي النهاية، وصـــل عبد الفتاح إلى المقدمة ورأى ســـالم يقترب منه بســـرعة. عندها انطلق مسرعًا، لكن سالم اقترب بسرعة أكبر، فخاف عبد الفتاح ولوح بيده لضربه، لكن سالم تجنب ضربته برشاقة. فأبطأه ذلك قليلاً، فزاد عبد الفتاح فارق المسافة بينهما وأسرع نحو خط النهاية وتجاوزه بانتصـــار. تلاه ســـالم ومحمد ورجلان من الكمداني وزميل ســـالم زيد، وتلاهما ابن الشيخ أحمد وابن الشيخ الفرفار، وبعدهم سبعة رجال بينهم عبدين والأبن الآخر لشيخ أحمد.

في تلك اللحظة هب المشجعون عليهم وحملوا عبد الفتاح وسالم فوق رؤوسهم، فقد كانا الأفضل متسابقين، أدمعت عيني كريمة ورحمة من فرحتهما لتجاوز سالم الجولة الأولى من المسابقة، وكانتا تضحكان وترقصان من الفرح.

ضحك الأمير وقال للشيباني: "ألم أقل لك إنه تكتيك محكم؟ ذلك العبد سيكون ذا شأن."

كان الشيباني مندهشًا من الأمر وفرحًا غير مصدق لما فعله ابنه للتو، لكنه شعر أنه ظلمه حقًا طوال حياته، وقال في نفسه: "مبارك لك يا ولدي."

وفي هذه اللحظة المليئة بالتناقضات، كان الشيباني يشعر بمزيج من السعادة والحزن. فرحًا برؤية ابنه يضحك بفرح صادق لإنجازه المذهل، ولكنه حزين لكونه لم يتمكن من مشاركته هو وأمه في هذه الفرحة، فقد أثبت ابنه أنه أقوى وأكثر شجاعة من أي شخص آخر في الجولة، ولكنه كان يشعر بعدم استطاعته أن يكون معه أو أن يدعمه في هذه اللحظة المهمة.

*****

(9)

الأخ يشد أخاه. محمد

دق الطبل العظيم، وبدأ الناس يُفرِقون الساحة، اقترب الأمير ببهجة وسعادة، ووقف في منتصفها محاطًا بالمتنافسين. وبينما كانت ابتسامته تلمع ببريق الفخر، تجلى صوته بكلمات التهاني: "عبد الفتاح مباركٌ لك! أثبتت حقاً أنك تستحق لقبك."

بكل فخر وكبرياء، أجاب عبد الفتاح بصوت ينبع من أعماق الثقة والعزم: "لك الشكر، يا أبي. ليس بالأمر الكبير، فقد حسمت أمر فوزي قبل أن أبدأ."

بينما كان الأمير يتبادل الضحكات مع ابنه. تركزت أنظاره على الشاب الواقف بجانبه، فقال باهتمام: "هذا العبد الصغير ينافسك بشدة، يبدو أنه يمتلك حماسًا غير متوقع."

توجهت كلمات الأمير نحو الشاب، وسأل بصوت ينطلق من صميمه: "ما اسمك؟"

أجاب بثقة وثبات مظهرا احترامه: "أنا سالم، من فخظ الكمداني."

على لسان الأمير، تجلى إعجابه بحكمة الشاب وذكاءه، فقال بابتسامة واضحة: "أحسنت فعلاً، فكرتك حكيمة للغاية، لقد فاجأتني."

وبينما كان سالم يتلعثم في رده، أكد أخوه محمد على فكرته، مما جعل الأمير يضحك ويقول برحابة صدر: "أحسنتما فعلاً، أتمنى لكم التوفيق في المستقبل."

في لحظة من الضجر والاستياء، عبر ابن الفرفار العربي عن مشاعره بكل جرأة، وقال بصوت مليء بالتكبر: "ماذا عنا يا أمير؟ لا دعاء لنا، ولا تشجيع؟"

رد الأمير بهدوء وثبات، وكأنه ينطق بحكمة قديمة تتجلى في كلماته: "الرجل لا ينتظر المديح، بل يسعى لاستحقاقه."

لم يمر هذا الحديث دون أن يشعر بقية المتنافسين بالضجر والاستياء، بدءًا من ابن أحمد وحتى ابن الفرفار نفسه. وفي هذه اللحظة، انتابتهم مشاعر الحقد والحسد تجاه سالم، الذي بدا لهم بمظهر المسكين الذي يجني ثمار النجاح بلا جهد وبلا تعب.

بينما كان ضجيج المتحدثين يعم على الساحة، أشار الأمير بيده بكل هدوء، عندها دق الطبل أربع مرات، فسادت الصمت حولهم، وفي لحظة انتظار مترقبة، انطلق صوته بوضوح: "الجولة الثانية ستبدأ من الآن، وستكون بعنوان من يصمد حتى النهاية."

سأل محمد بدهشة وتساؤل: "ما المقصود بذلك؟"

أجاب الأمير ببراعة وثقة: "سيتم دق الطبل خمسين مرة، وستكونون حينها داخل دائرة تصارعون بعضكم، وعليكم إخراج خصومكم دون أن تخرجوا من الدائرة، ومن يبقى داخل الحلبة حتى آخر دقة سيتأهل للجولة الثالثة."

لم يتمالك أحد العبيد نفسه من الضحك، وعلق بسخرية: "هكذا سنجلس حتى تنتهي الدقات ونتأهل جميعا يا سيدي الأمير!"

أكد الأمير بحكمة: "صدقت القول، ولكن في هذه الحالة، سنحضر أحد العميان وسيختار عشوائياً سبعة أشخاص ليتم إقصاؤهم، ولهذا عليكم إخراج خصومكم بسرعة."

شعر سالم بتوتر يسري في جسمه، فهو كان الأصغر حجماً والأضعف قوة في هذه الساحة المليئة بالتنافس والجثمانيات الضخمة، حيث يبدو أن إخراجهم جميعًا كضرب من المحال. ولكن لم يكن هذا التوتر يمنعه من التفكير بحيلة للتغلب على منافسيه، الذين بدت نظراتهم تُظهر أن هدفهم الوحيد هو إبعاده لتأمين مكانهم في المباراة التالية.

في الساحة الرملية الواسعة، المحاطة بأشجار النخيل التي كانت تلوح بلطف مع النسيم، تجمع الحشود وسط النهار، تنتظر بفارغ الصبر ما سيحدث. الجو كان مشحونًا بالحماس والتوتر. وبينما كانت الشمس تسطع على الرمال الذهبية، رُسمت دائرة ضخمة في وسط الساحة، حيث يتقرر مصير المتنافسين.

سالم، وسط هذا المشهد، كان يقف متردداً، يحاول أن يجد في عقله حلاً للتغلب على خصومه. عقله كان مشوشاً، وأفكاره مشتتة بين الخوف والقلق. ولكن فجأة، اخترق هذا الضباب صوتٌ مألوف، صوت أخته الصغيرة كريمة، التي كانت دائمًا تعرف كيف تجعله يشعر بالأمان. عند سماع ندائها، تحولت تعابير وجهه من القلق إلى البهجة. ركض نحوها بخطوات سريعة، وكأنه وجد طوق النجاة في بحر من الأفكار المظلمة.

عندما وصل إلى كريمة وأمه، كانت كريمة تقف هناك بثقة تفوق سنها الصغير. سألته ببراءة ممزوجة بالذكاء عما سيفعل، فرد سالم بارتباك: "والله لا أدري، أنا ضحية في هذه الجولة."

هنا، التقطت كريمة ذقنها بأصابعها الرقيقة، عاقدة حاجبيها في تفكير عميق. كان سالم يراقب حركاتها بانتباه، فضوله يزداد مع كل لحظة تمر. ثم اندلع صوت ضحكتها، تلك الضحكة التي كانت دوماً تُريح قلبه، وقالت له بابتسامة ماكرة: "وجدتها!"

لمعت عيون سالم بالفرح والأمل. انحنى نحوها عندما طلبت منه الاقتراب، وبتلك الجدية التي كانت تغلف براءتها، همست له بخطة مدهشة. كلماتها الخفية جعلت عينيه تتسعان دهشة، ولكن كان في صوتها الثقة التي زرعت الطمأنينة في قلبه، فأجابت: "ثق بي فقط، يا أخي."

استقام سالم ووجهه مشرق بالثقة، ثم التفت إلى أمه التي كانت تقف بجانبهما. قبل أن يغادر، أمسكت أمه، رحمه، بوجهه بين كفيها، تضغط عليهما بحنان خفي. نظرت في عينيه بعمق، وقالت بحب: "فلتكن حذرا يا سالم." كانت تلك الكلمات مليئة بالعاطفة والقلق، وكأنها كانت ترى ما وراء الساحة، في عيون الخطر المحدق.

ابتسم سالم لها بلطف، وعانقها برفق، محاولاً أن يطمئنها وهو يقول: "بالتأكيد سأفعل ذلك يا أمي الغالية." كان هناك شيء في تلك اللحظة، في ذلك الحضن، يجسد كل الحب والحنان الذي

يجمع هذه العائلة. ثم، وبينما كان يتجه نحو الساحة مجدداً، كان قلبه مطمئناً بدفء دعمهم، وقد علا تصفيقهم وهتافهم باسمه، يحيطه بطبقة إضافية من القوة.

لكن، خلف هذه الفرحة العائلية، كانت هناك عيون خبيثة تراقب من بعيد، تخطط لما هو آتٍ، مما جعل المشهد يغمره توتر خفي، يُنبئ بأن هذا التضامن العائلي سيُختبر قريبًا بشكل لم يتوقعه أحد.

دقت الطبول بإيقاع يملأ الجو توتراً، ودخل جميع المتنافسين إلى الساحة الرملية بحذر، كل واحد منهم يزن خطواته، يختبر من حوله بعينين يقظتين. كان الجو مشحونًا بالتوقعات، والتصميم يظهر في وجوه الجميع. وبينما كان سالم يقترب بسرية من أخيه محمد، همس له ببعض الكلمات التي لامست شيئًا في قلب محمد، فرد عليه بتصميم: "أنا معك."

وقف الأمير وأعلن: "استعدوا." كانت لحظة من الصمت تسبق العاصفة. ثم، بإشارة واحدة، أعلن بداية المعركة: "ابدؤوا."

بدأ الطبل العظيم يدق، كل دقتين تحمل معها لحظة من الزمن، تكشف عن هشاشة من يقف في دائرة الخطر.

تحرك الخصوم بحذر، ولكن شيخنه، ابن الشيخ أحمد، لم يكن بوسعه الانتظار. هاجم عبد الفتاح بعنفوان غير محسوب، ولكنه وجد نفسه يواجه قوة هائلة لم يكن يتوقعها. عبد الفتاح، بجسده الضخم وقوته الفطرية، أمسك بشيخنه من خاصرتيه، ورفعه عن الأرض كأنه يحمل طفلًا، ثم قذفه خارج الدائرة كدمية. ارتطم شيخنه بالأرض بقوة، وشعر بألم حاد يسري في ظهره، مع طعم الهزيمة المريرة.

من بعيد، ضحك الشيخ الشيباني بسخرية، وقال: "يبدو أن ابنك تلقى درساً من عبد الفتاح يا أحمد."

فرد أحمد ببرود، يخفي قلقًا خافتًا: "ليس أيًا منهم منافس لعبد الفتاح."

لكن في وسط هذه القوة الغاشمة، لم تكن المعركة مجرد مواجهة بدنية؛ بل كانت تكتيكًا محكمًا، تخطيطًا لمفاجأة الخصـــم وإقصـــائه. الأمير لاحظ ذلك وقال بلهجة تنبيه: "هل أنتم منتبهون؟ انظروا جيدًا، ذلك العبد يقوم بتكتيك من نوع جديد."

التف الجميع نحو الحلبة، حيث كان محمد وسـالم يلتفان حول أحد الخصـوم. في لحظة واحدة، انطلق محمد نحو خصـمه وأمسـكه بقوة من كتفيه، يدفعه بضـغط متزايد نحو الحافة. ثم، في حركة مباغتة، هاجمه سـالم من الخلف، راكلاً سـاقيه بقوة فتعثر وانهار على الأرض. وبدون تردد، قبض سالم على رجليه، بينما أمسك محمد بذراعيه، ورفعا جسده عن الأرض كأنه جثة هامدة، ثم قذفا به خارج الحلبة بقوة. وقع الخصم على الأرض بقسوة، وسمع الجميع صوت انكسار أصابعه، نتيجة السقطة العنيفة

تلاحقت الأحداث بسـرعة، وخلال دقائق معدودة، خرج من الحلبة سـتة متنافسـين، ثلاثة منهم أخرجهم سـالم ومحمد. كان الجميع يراقبهم بقلق متزايد، خاصـة العربي، ابن الفرفار، الذي بدأ يشـعر بأن الخطر يقترب منه. بتوتر خفي، أشـار العربي لأحد عبيده بإشـارة سـريعة، فانطلق الإثنان في هجوم مباغت على سالم ومحمد.

في لحظة واحدة، اندفع العربي نحو محمد، وضـــربه بقوة بمنكبه، مما جعله يتهاوى على الأرض. قبل أن يستطيع محمد التماسك، كان العربي قد أمسك بساقه ثم لواها بعنف، وبدأ في جره نحو حافة الحلبة بقسوة. حاول محمد المقاومة، ولكن الألم في ساقه كان شديدًا، وجسده بدأ يخونه.

في مكان آخر من الساحة،كان زيد، صديق سالم الوفي، يتصارع مع خصمه، محاولًا إقصاءه. وبينما كانت المنافسة تشتد، صدحت أصوات صرخات سالم، تُطالب زيد بالمساعدة: "يا زيد! ساعد السيد محمد، هيا، أسرع!"

هذه الصيحات دفعت زيد للتحرك دون تردد. تلاشى انتباهه عن خصمه، وانطلق نحو العربي الذي كان يجر محمد بلا رحمة.

بحركة سريعة، صدم زيد العربي بكل قوته، مما أسقطه على الأرض بقسوة. في لحظة النصر تلك، انزلقت قدم زيد خارج حدود الحلبة، وأقصي من المنافسة، تاركًا سالم ومحمد في مواجهة الخطر مجددًا.

وسط صيحات الجماهير وهتافاتها، وجد سالم نفسه على وشك الإقصاء، يُسحب نحو حافة الحلبة بسرعة متزايدة. كانت الطبول تدق بإيقاع متسارع، والوقت يمر كالسيف. وبينما كان سالم يكاد يستسلم، حدثت المفاجأة.

في لحظة حاسمة، شعر سالم بأن العبء الثقيل الذي كان يسحبه قد خف فجأة. التفت ليرى عبد الفتاح، بجسده الهائل، قد أمسك بالعبد الذي كان يسحبه، ورفعه عن الأرض بقوة لا تصدق، ثم قذفه خارج الحلبة بقسوة.

بينما استعاد سالم توازنه، كان عبد الفتاح ينظر إليه بعينين مليئتين بالتصميم، مد يده بسرعة في محاولة لإقصائه أيضًا. لكن قبل أن يتمكن من ذلك، دقت الطبول معلنة نهاية الوقت. أدرك سالم أنه نجا من الإقصاء، وكانت الابتسامة ترتسم على وجهه وهو يتلقى مبادرة عبد الفتاح لمساعدته على النهوض، وجلبت مصافحتهما الحارة الحماسة والرعشة إلى قلب سالم.

"حظك عظيم،" هكذا ترنحت كلمات عبد الفتاح بين السطور، وهو يضحك بابتسامة صادقة.

وفي لحظة تلاقي الأيدي، ارتفع سالم ليقف على قدميه، ورد عليه بكلمات الامتنان: "شكراً لك سيدي."

وعلى وقع تصفيق الجماهير المشجعة، احتشدت الأصوات والتشجيعات في الساحة، إذ تأهل سبعة متنافسين من بين خمسة عشر، بينهم عبد الفتاح، محمد، سالم، والعربي ابن الفرفار، ورجل من فخذ جلفون، بالإضافة إلى عبدين آخرين. وهكذا، تبوأوا مكانهم في الجولة المقبلة، حاملين بداخلهم شغف النجاح ورغبة الفوز.

ضحك الأمير، وفي الوقت نفسه، ألقى الشيباني نظرة عميقة نحو الأحداث، قائلاً بصوت متعالٍ: "يا فرفار، يبدو أن هناك صراعًا محتدمًا بين أبنائنا."

وبينما كان الحديث يجري، لم يتردد الأمير في تقديم وجهة نظره، قائلاً: "لكن هذا العبد مختلف فيه شـــيء قريب، لقد رأيت كيف نادى صـــديقه لكي ينقذ محمد بدلاً منه، وهذه تضـــحية كبيرة منه."

ابتسـم الشـيباني وهو يسـمع كلمات المديح التي يتلقاها ابنه، لكن رد فرفار كان صـارمًا، وهو يقاطع بحنق: "إنه عبد، هذا مجرد نفاق، فقط لكي يسترضي أسياده لينل حريته."

هذه الكلمات أثارت غضـب الشـيباني، الذي ضـغط على أسـنانه غيظا، لكنه رد بهدوء، قائلاً: "لعل كلام الفرفار صحيح، لكن للأمير وجهة نظر من الجيد لنا تقديرها."

بدا الفرفار متضـــايقًا من تلك الكلمات، في حين تدخل الشـــيخ أحمد بثبات: "ســيكون الفوز من نصيب عبد الفتاح، فهذا واضح، فهو متفوق عليهم في كل شيء."

ضـــحك الأمير وقال بابتســـامة: "لا أتفق، قد يبدو عبد الفتاح قويًا جدًا، ولكنه ليس بارعا في وضع الاستراتيجيات مثل ذلك العبد سالم، فهو يعتمد على قوته في حل المشاكل غالبًا، والجولة المقبلة ستكون صعبة عليه."

مع ذلك، بقي الفرفار مصرا وواثقًا من أن الحظ كان حليفًا لسالم، بعدها ابتسم بخبث وهو يرى الشيباني مغتاظا من كلماته.

خرج الأمير إلى الســاحة، حاملاً بيده ما يبدو أنها الإشــارة لبداية شـــيء مهم. دق معها الطبل العظيم أربع مرات، فساد صمت عميق أرجاء الساحة، كما لو أن العالم أوقف حركته للاستماع.

قال الأمير بصـوت يعطي الثقة والأمل: "الجولة الثالثة ستكون أكثر حماسًا، إن شاء الله، ولكن سـنؤجلها قليلاً. فنحن نريدكم أن تتمتعوا بالإكرام قليلاً، وتسـتريحوا، بينما يسـتعد المتنافسـون للجولة القادمة."

بعدها وجه إشـــارة بيده، فتقدم العديد من العبيد والخادمات، محملين بـأعراش مليئـة بالبلح الطازج، وأواني ممتلئة بالتمر الحلو المستوي، وقُرب الماء البارد.

وبهذه الكلمات اللطيفة، قال الأمير: "تناولوا واشـربوا أولاً، ثم سـنواصـل المسـابقة على بركة الله."

انبهر الناس وهللوا بالشـكر، ورفعوا أصـواتهم بالدعاء للأمير، مبتهجين بفرصـة الاسـتراحة المفاجئة. بعد ذلك، تفرق المضـيفون، يوزعون التمر والبلح والماء بين الجماهير، في حين عاد الأمير إلى الخيمـة وجلس على مقامـه المرموق. وتقدم بعض العبيد والخدم بـأطباق كبيرة من الفضــة، مليئة بالتمر والبلح، وقاموا بتوزيعها بين الجالسـين من ضـيوف الشـرف في الخيام الثلاثة، فبدأوا في التناول وتبادل الحديث بينهم بفرح وبهجة.

*****

(10)

نظرة عن قرب. زهراء

تحت ظل إحدى الخيام المخصصة لضيوف الشرف انتاب زهراء، ابنة الأمير، شعورٌ بالاختناق في خيمة النساء المخصصة، لم تستطع إلا أن تشعر بالحنين إلى حرية الاحتفالات وصخب الجماهير التي تتجمع في الساحة. كانت الخيمة مليئة بالنساء الجالسات بأناقة على الوسائد المخملية، يتبادلن الحديث بصوت خافت ويتابعن المسابقة من خلال الفجوات في الستائر الشفافة. رائحة العطور والبخور تملأ المكان، تضيف لمسة من الفخامة والرفاهية، لكنها كانت بالنسبة لزهراء كالسجن الناعم.

زهراء علمت جيدًا أن أمها، السيدة الجليلة، لن تسمح لها بالمشاركة في الاحتفالات لو أعلمتها برغبتها. وفي لحظة من الاضطراب والحيرة، جاء قرار زهراء بأنها يجب أن تتخذ خطوة جريئة. عندها نكست أمها، التي كانت تجلس بجانبها مرتدية عباءة مزينة بلون ذهبي، نظرت لها بدهشة، وسألت: "ما بك؟"

ردت زهراء وهي تشعر بضيق التنفس يزداد: "سأذهب قليلاً."

فأومأت أمها بالموافقة بحركة بسيطة، وخرجت زهراء مع صديقاتها إلى مكان خالٍ من الناس خلف الخيمة. هناك، بين أشجار النخيل التي تحجب بعض الضوء وتمنح الظلال، طلبت زهراء من صديقتها الغالية مريم، زوجة عبد الفتاح، أن تعطيها ثوبها.

قالت مريم بصوت مفعم بالدهشة: "ماذا تقصدين؟"

ردت زهراء بعزيمة: "سأذهب لأحتفل مع الجماهير، ضاق صدري من هذه الرسميات في الخيمة."

قالت مريم بتردد: "لكن ماذا لو سألتنا أمك عنك؟"

أجابت زهراء وهي تضع يدها على كتف مريم بحنان: "ستقطين وجهك وتجلسين بجانبها دون أن تنطقي بكلمة واحدة، فقط للتوضيح."

لكن زهراء أضافت بحزم: "لن يدوم غيابي طويلاً، فقط أريد أن أكون حرة لبضع لحظات."

زفرت مريم وقالت: "حسنًا، هيا، أتمنى ألا يكون اليوم نهاية حياتنا."

عندها تبادلن الثياب بسرعة، حيث قالت زهراء بثقة: "لن أتأخر، فقط قطين على غيابي."

ثم انطلقت زهراء وسارت بثقة بين أشجار النخيل، حتى وصلت إلى الساحة الرئيسية. وعندما رأت الناس، انضمت إليهم بسرور، ودخلت بين الحشود بانسيابية. كانت تشعر بالبهجة والحماس لرؤية الناس يتبادلون التحية والضحكات، والأطفال يلهون بينهم، والناس يتبادلون الحديث والمرح. الهواء كان مليئاً برائحة الطعام الطازج، والأصوات تعلو وتتداخل في سيمفونية من الحياة والفرح.

فجأة لفت انتباه زهرة صوت عزف المزمار، فهرعت نحو مصدره ووجدت عازفًا عجوزًا يعزف، والناس يرقصون ويضحكون من حوله. كان العازف يجلس على حصيرة منسوجة يدوياً، وأصابعه تتحرك بخفة على المزامير، تنساب الألحان إلى الآذان فتبعث في القلوب سروراً لا يوصف. انغمست زهراء في جو من الفرح العارم، وابتسمت تحت قناعها من دون أن تستطيع كبت سعادتها، وتمنت لو كانت تستمتع بهذه اللحظات السعيدة دائمًا.

ثم انتقلت إلى مكان آخر حيث كان الشباب والفتيات مجتمعين حول لعبة ظامة. اندمجت زهراء في اللعبة ببراعة، ولم يفلت منها أي تحرك، فلاحظت حركة قوية في متناول أحد الشبان اللاعبين، وأشارت إليه بدهشة، وقالت: "أنت، حرك العود الفلاني نحو كذا وافعل كذا." لم يتوان الشاب عن فعل ذلك، فتفاجأ الجميع ببراعتها، وبدأوا يشيدون بذكائها ودهائها، ودعوها للمشاركة بالمزيد.

ومع تلك الإشادة والتشجيع، خافت زهراء من أن يكتشفوا هويتها، لذا قالت بسرعة: "شكرًا، شكرًا، سأذهب." ثم غادرت بسرعة، متركة وراءها أثرًا من الدهشة والإعجاب بمهارتها

وذكائها. كانت أنفاسها تتسارع، وقلبها ينبض بحماس، لكنها شعرت بالرضا لأنها استطاعت أن تتذوق طعم الحرية ولو للحظات قليلة.

واصلت زهراء سيرها بين الحشود، مستمتعة بالأجواء الحماسية والحيوية. ولكن، فجأة، اصطدمت بامرأة ضخمة وسمينة، فصاحت في وجهها بانزعاج، مطالبة إياها بالانتباه والتحلي بالحذر. خافت زهراء قليلاً، وتراجعت للخلف، وهي تعتذر بحرارة وتتأسف عن الحادث.

ولكن، وهي تسير للخلف ارتطمت بشخص آخر خلفها، فتوجهت إليه بسرعة معبرة عن خوفها وهي تعتذر بحرارة. بينما كانت تخاطبه بكلامها وهي مغمضة عينيها، سمعت صوته يرد عليها برقة ولين، قائلاً: "لا بأس ليست هناك مشكلة سيدتي."

عندها فتحت زهراء عينيها لتجد الشخص الذي أجابها هو المتسابق المفضل لديها، سالم. شعرت بتسارع نبضات قلبها، إذ أدركت أنه العبد المشارك في البطولة الذي كانت تتابعه بشغف. ولكن، ما لفت انتباهها بشدة هو جماله وسحر مظهره، فكانت إطلالته جذابة وابتسامته الساحرة تبعث البهجة في نفوس المتواجدين.

فجأة قاطع شرودها صوت كريمة التي كانت تقف بالأسفل وفمها مليء بالتمر. "انتبهي لخطواتك، أيتها السيدة، بطلي لا يحتمل أي إزعاج."

صوت زهراء، العذب والمتألم، يعتذر: " أنا آسفة حقا."

رد سالم بلطف وهو ينظر لكريمة بعتاب: "كريمة، لا تكوني قاسية بهذا الشكل."

لم تهتم زهراء كثيرًا: "ليس الأمر مهمًا، إنها مجرد صغيرة."

فاجأت كريمة بالانزعاج وهي تصيح: "ما الذي قلتيه، أيتها النخلة؟"

نظرت زهراء إليها بندم، ثم درت في نوبة جنون وصراخ: "ماذا تقصدين بالنخلة يا مجنونة؟"

ردت كريمة بغضب ثائر: "نعم، نخلة، هل تريدين الموت؟"

أرادت زهراء الرد، لكن سالم أمسك بكريمة فجأة، ووضع يده على فمها، وقال لزهراء وهو يبتسم: "أعتذر حقًا عن فظاعة كريمة." ثم حملها وذهب بها، وهي تحاول الانطلاق وتلكم، وتركل الهواء، وهو يقول بضحك: "اهدئي يا فأرة، قبل أن يدعسك أحد ما."

ضحكت زهرة عندما سمعت كلامه، وتساءلت عن اسمه. حاولت المغادرة، لكنها اصطدمت بشخص آخر، فسقطت على الأرض، وسقط قناع وجهها. وعندما نظرت لأعلى، رأت أخاها عبد الفتاح.

ضحك عبد الفتاح وقال: "انظروا من يتسلل دون علم أمي."

هرعت زهرة لتغطي فمه، وطلبت بلطف: "أرجوك، اخفض صوتك."

سألها عبد الفتاح: "ماذا تفعلين هنا؟"

أجابت زهرة: "أمي لم تسمح لي بالخروج، لذا هربت وتركت زوجتك مريم في مكاني."

عبد الفتاح رد هامسا بغضب: "أنت فعلاً مجنونة، ألا تعرفين أنه من الخطر عليك أن تكوني هنا؟ هناك الكثير من اللصوص والفاسدين هنا."

توسلت زهرة وهي تطبق كفيها: "أعلم ذلك، لكن أرجوك لا تخبر أمي."

زفر عبد الفتاح ثم سألها وهو يضع يديه على خاصرتيه: "هل ستعودين الآن؟"

أجابت زهرة بنفي وهي تنظر له: "لا، سأبقى قليلاً بعد."

فأجابها عبد الفتاح بصوت الموافقة: "حسناً، لكن ستبقى معك رفقة، لن أتركك تتجولين وحدك بين هذه الحشود."

عندها نادى صديقه بياني، فوجد صديقه بين يديه، فأخبره بأن زهراء، سترافقه ويجب عليه أن يحميها في كل مكان حتى تعود بسلام إلى والدها.

بياني نظر إلى زهراء باهتمام وأجاب ببساطة: "حاضر."

زهراء شكرته قائلة: "شكراً أخي."

حذّرها عبد الفتاح: "احتراسي، أي مكروه قد يصيبك سيغضي علينا والدك جميعاً."

أجابت زهراء: "حاضر، سأكون حذرة يا أخي."

استعد عبد الفتاح للرحيل حينها نادته زهراء لتسأل: "أخي، ما اسم ذلك العبد الذي ينافسك؟"

أجابها عبد الفتاح: "اسمه سالم، ومالك به؟"

طلبت زهراء برفق وتودد: "من فضلك، لا تكن قاسياً عليه، إنه صغير."

ضحك عبد الفتاح: "أنتِ والرفق بالعبيد، حسناً، لن أصيبه بمكروه، مالم يُحاول إغضابي."

زهراء أمنت له: "أتمنى لك التوفيق، فز بنزاهة."

ضحك وغادر في طريقه. باستمرار في المكان، ذهبت زهراء للتجول وكان بصحبتها صديق عبد الفتاح. لم يمض وقت طويل حتى دقت الطبل ثلاث مرات، فبدأ الناس في مغادرة الساحة وتبعتهم زهراء.

بعد ذلك، تقدم الأمير إلى وسط الساحة ووقف معه المتسابقون السبعة، ثم صاح بصوت قوي: "الآن نستأنف البطولة."

رددت الجماهير بصوت واحد وهتفت بالتصفيق. ثم قال الأمير: "الآن حانت الجولة الثالثة، ولكن هذه المرة لا تعتمد على القوة ولا السرعة".

ضحك عبد الفتاح وقال بتمتمة: "كل شيء يحل بالقوة".

قال الأمير ببهجة: "هذه الجولة سميتها (من يطعم نعجته أكثر)"

انطلقت ضحكات الجماهير ولامست ضحكة الأمير أيضًا، وبيده أشار للجميع بالهدوء. "ستُنصب هنا أعمدة بعدد المتنافسين، ستكون طويلة وسميكة وزلقة، وعلى قمة كل عمود سيتم وضع عرش من ثمر البلح. وسيُربط سبع شياه لكل متنافس واحدة ليطعمها من البلح الذي في قمة الأعمدة. وعليكم جمع البلح من أجل شاتكم. أما عن كيفية الحصول على البلح من قمة الأعمدة فسأتُرك لكم حرية الاختيار. سيدق الطبل مئتيْ مرة، الوقت المتاح لإطعام شياهكم هو حتى آخر دقة على الطبل.

وسيتأهل أكثر ثلاثة حاصلين على البلح. الآن، لديكم لحظات للتفكير في كيفية الفوز في هذه الجولة".

أومأ الأمير برأسه فاقترب العديد من العبيد ورجال الأمير حاملين أعمدة خشبية ضخمة وطويلة، ثم شرعوا في الحفر وتثبيتها في الأرض.

في مقدمة صفوف الجماهير، وقفت زهرة وصديق عبد الفتاح، وهما يضحكان ويتبادلان الحديث عن التحدي الذي وضعه والدها. وفي هذه الأثناء، سمعت صوتًا ينادي باسم تعرفه، فنظرت إلى الجهة اليسارية ورأت كريمة ورحمة تتحدثان.

قالت كريمة بارتباك: "هذا التحدي صعب، أنا أفكر في حل يا أمي".

ردت رحمة بقلق: "إذا عجِّلي. سالم بحاجتك".

فهمت زهرة ما يجري وأدركت أن تفوق سالم في الجولات السابقة كان نتيجة لتخطيط كريمة، الطفلة الماهرة.

قالت زهرة في نفسها "تلك الطفلة صغيرة جدًا، ولكنها تتمتع بنضج يفوق سنها الصغيرة على ما يبدو. ولكنها لم تكن وحدها من ساهمت في نجاح سالم، بل كان سالم نفسه يبذل الكثير. كان نشطًا وقويًا للغاية ومتناسقا مع الخطط."

فجأة شعرت زهرة ببعض القلق وهي تنظر للأعمدة، فتساءلت في نفسها: "ولكن، هذه الجولة صعبة للغاية، حتى أنا لم أستطع أن أجد طريقة للفوز. فأبي قد حد من فرص الفوز."

فجأة انقطع تفكير زهرة بسبب صوت رجل يتحدث إلى أم سالم، قائلاً: "الشيخ الشيباني يحتاجكما الآن لإنجاز بعض الأعمال في المخيم، ويجب أن تنتظروا عودته".

ردت رحمة بخوف من هيأته: "من أنت؟"

أجاب الرجل: "أرسلني أحد أتباع الشيخ الشيباني."

قالت رحمة بتوسل: "أرجوك ألا يمكننا أن ننتظر حتى انتهاء الجولة؟".

أجاب الرجل بحزم: "لا، الأمر عاجل، أسرعاً من فضلكما."

غضبت كريمة كثيرًا، فطبطبت رحمة على ظهرها وقالت: "سيكون الله مع سالم، لا تقلقي عليه، هيا فلنذهب".

ومع متابعة زهرة لما يجري، غادرتا مع الرجل دون أن يلاحظ سالم ذهابهما. كانت زهرة تراقب كل ما يحدث حولها بانتباه شديد، وعندما نظرت نحو منتصف الساحة، رأت سالم يبدو

محتارًا للغاية. وفجأة، نظر سالم باتجاهها، فتفحصها بنظره قليلاً ثم نظر في اتجاه آخر. زهرة عرفت أنه يبحث عن كريمة لتساعده، لكنها غادرت دون علمه، للأسف.

عندها بدأت تخطر لزهرة فكرة مساعدة سالم، ولكنها كانت تشعر بتردد عن فعل ذلك. وفجأة، قاطعها صوت الطبل العظيم يدق، فدخل والدها الساحة، وكان نصب الأعمدة قد انتهى. رفع الأمير يده فسكتت الجماهير، ثم أشار للمتنافسين الذين لم يكونوا على استعداد لخوض هذه الجولة الغريبة، بمن فيهم عبد الفتاح.

قال الأمير وهو مستمع بمنظر الارتباك على وجوه المتنافسين: "هل أنتم جاهزون؟"

لم يرد أحد منهم، فقال الأمير بانتصار: "استعدوا."

ثم لوح بيده، فدق الطبل معلنا عن بداية وقت المنافسة، وقف المتنافسون ينظرون، في لحظة من الترقب والارتباك.

(بوم). تتلاحق دقات الطبل والمتنافسون يقفون، وضربات قلوبهم تتسارع مع كل دقة. انطلق عبد الفتاح نحو العمود، وتبعه العربي ابن الفرفار. وقف عبد الفتاح بجوار العمود، الذي كان أملسا ومغطى بالزيت.

لمسه عبد الفتاح فوجده زلقا للغاية، ومع ذلك، أمسك به بقوة وبدأ التسلق. ولكن عندما ارتفع قليلا عن الأرض، بدأ ينزلق بسرعة، فحاول مرة أخرى وفشل، ومرة أخرى، وأخرى وأخرى، وفشل أيضا. غضب وقال: "ما هذا السخف؟"

وفي الوقت نفسه، وقف سالم متحيرًا، يفكر في ماذا سيفعل ويقول في نفسه "أين كريمة وأمي."

في حين بدأ العربي باستراتيجيته، ونزع بعض لباسه وبدأ يمسح العمود ليخفف من لزوجته، وقلده المتنافسون الآخرون، فكانوا يمسحون ويبدأون في التسلق ويمسحون من فوقهم.

كان الأمر صــــعبًا للغاية، فســـقطوا عدة مرات، ولكنهم كانوا مصـــرين على المتابعة. إلا أن العربي كان متمسكًا بقوة بالعمود ولم يسقط مثلهم. وفي الوقت نفسه، لم يحرك سالم ساكنًا، كان مرتبكًا للغاية ويشــعر أنه قد خســـر، حتى أنه لم يجرب لمس العمود بنفســـه، فقط تجمد مكانه كالحجر.

وفي غمرة اليأس والفشـل، وجد الرجال أنفسـهم مغمورين في بحر من الإحباط بعد محاولاتهم الفاشـلة في تقليد العربي الذي كان يبذل جهدا جبارا في محاولة التسـلق. ومع تزايد شــعورهم بالإحباط، توقفوا عن المحاولة وتباعدوا عن التحدي، تاركين الأمل يتلاشى في الهواء.

وفيما كان الجميع يستسلم للظروف ويتأقلم مع الهزيمة المحتومة، خرج محمد بالأمل والحماس للحدث. وهز العمود بجرأة، لكنـه لم يبـدي أي تحـرك يُذكر، لكن حتى القليـل من الحركـة كـان يكفي لإعادة الأمل إلى قلبه المتفائل.

كـان الجو هـادئـاً تمـامـاً، والخمول يخيم على الجمهور المتواجد، الـذين كـانوا يفتقدون للحـافز والدافع للمضي قدماً نحو الفوز. وفي تلك اللحظة الدرامية، ظهرت زهرة كشعلة مشتعلة، ترفع صوتها بشجاعة وثقة، محفزة سالم بكلماتها القوية والمليئة بالإيمان "سالم".

صــوت زهرة كان كالصــاعقة في الصــمت، يجذب الانتباه ويســتنير القلوب بالأمل والتفاؤل. ووسط هذا البحر من الصمت، نظر سالم خلفه ورآها،

ثم صــرخت مرة أخرى، وهي تنادي بصــوت قوي: "أنت قادر على ذلك، لا تســتســلم، الفوز ينتظرك!".

دق قلب ســالم بقوة عندما رأى زهرة، وســمع تشــجيعها القوي. ولكنه تمكن من إبقاء صــوته منخفضاً وهو يقول: "إنها الفتاة التي تشاجرت مع كريمة".

ثم قالت زهرة: "هيا، شجعوه!" وبدأت تردد اسمه "سالم، سالم، سالم."

بعدها، انضم بعض الجماهير إلى الترديد، وكان كل الحضور يشجعون سالم ويهتفون باسمه بحماس، محاولين إحياء الساحة بالحماس.

كان سالم يقف مصدومًا، فلم يكن يتوقع أبدًا أن يحدث له شيء كهذا يومًا ما. وفي تلك اللحظة، شعر بثقة المحيطين به، وبدأ يعتقد في قدرته على أن يكون محل ثقتهم جميعًا. فبدأ يفكر، متسائلا ماذا كانت كريمة ستفعل في موقف مثل هذا، قالها محاولًا أن يستوحي من تفكيرها.

وقف الأمير أمام الخيمة مدهوشًا مما يحدث، حيث عرف أن الفتاة التي تشجع سالم هي ابنته زهراء. اسرعت أمها ووقفت بجانبه وقالت: "هل رأيت ما فعلته زهراء؟"

فأجابها بذهول: "نعم"

ردت عليه بانفعال: "لقد خدعتني وهربت دون علمي سوف..."

قاطعها الأمير قائلاً: "دعيها وشأنها، إنها سعيدة كونها مع الناس الآن، فلنتركها وشأنها، سأرسل من يراقبها".

حاولت الأم تقديم اعتراض ولكن قاطعها الأمير بإشارة من يده قائلاً: "لا، افعلي ما قلتُ يا حبيبتي".

ردت بحزن وهي تخرج زفيرها: " كما تريد يا أمير."

وصلت الدقة إلى مئة وخمسين، وانقضى معها ثلاثة أرباع وقت الجولة، والجماهير تهتف باسم سالم، الذي كان يفكر ويقول في نفسه: "ماذا كانت ستفعل كريمة؟"

ثم، وفي لحظة إدراك نظر ورأى زهراء تصفق وتشجع، فقال في نفسه: "سالم، ما الذي كنت ستفعله أنت في هذا الموقف؟"

تعالت ضــربات قلبه، وهو يســمع هذه الكلمات داخل عقله. ثم نظر حوله ورأى العربي بالكاد ينزع البلح ويرميه للأسفل وهو بين الانزلاق والتسلق.

قال سالم في نفسه: "لا، لا أستطيع فعل هذا."

ثم حول نظره لعبد الفتاح الذي كان ســيجن، فقد عجز تمامًا عن التســلق مع اللزوجة. ثم حول نظره مرة أخرى، لأخيه محمد الذي كان في يده حجرٌ كبير يضرب به العمود لكي يهتز ويسقط القليل من البلح عليه من القمة. قال سالم في نفسه: "لا."

ثم أراد أن ينظر للآخرين، لكنه توقف فجأة في لحظة إدراك أخرى، وأعاد النظر لأخيه، لا، ليس أخيه، بل بأســفل أخيه، بجوار قدميه على الأرض، كان هناك العديد من قطع الحجارة المنكســرة بســبب ضــرب أخيه للعمود، عندها لاحت في بال ســالم الفكرةُ الذهبية التي طال انتظارها.

أســرع ســالم نحو عموده، ونظر الجميع إليه بفضــول واهتمام، حيث بدأ يحفر أســفل العمود واســتخرج حجرًا من الحجارة التي اســتخدمت لتثبيت الأعمدة، وكان الجميع ينظرون بترقب وذهول. ثم، وبكل قوته، قذف الحجر نحو العمود، فانكســر الحجر إلى أشــلاء صــغيرة، ثم انخفض سالم ليلتقطها جميعًا، ثم عاد يتراجع خطوات إلى الوراء.

في زاويته، كان يصل إلى عبد الفتاح ذلك الصوت القوي، صوتٌ يعرفه جيدًا، صوت انشطار الهواء الذي يصدر عن سرعة رصاص الأسلحة النارية. كانت لحظات من الرهبة والفضول، حيث كان يعرف أن شيئًا مثيرًا يحدث خلفه.

ثم، في لحظة مفاجئة، نظر بسرعة إلى الخلف ليتفاجأ برؤية سالم، شاب ذو عزيمة لا تلين، يقفز بقوة ويُلقي قطعًا صخرية صغيرة وحادة نحو البلح الموجود في أعلى العمود. لكن ما أرعب عبد الفتاح كان دقة وقوة تلك الرميات السريعة، حيث لم يخطئ سالم في أي رمية من رمياته المتتابعة، فتساقط البلح من العمود كما لو كان قطرات من المطر تسقط على الأرض، محدثًا صخبًا وصياحًا هستيريًا في صفوف الجماهير.

التي انفجرت بصخبٍ لا يوصف، إذ لم تكن اللحظة مجرد عرض للقوة والدقة، بل كانت تحفة فنية من المهارة والانتصار. تسارعت أنفاس الحاضرين، وارتفعت صيحاتهم إلى السماء، مثل أمواج بحر هائج، تغمر الساحة بكل ما فيها. أيدٍ تلوح في الهواء بشكل عشوائي، والبعض يضرب الأرض بأقدامه في انفعال جامح، بينما الأعين لا تترك سالم للحظة، تتابع كل حركة من حركاته كأنها معلقة بحبل رفيع بين الحياة والموت.

لغة الجسد الحشود كانت مشحونة بالتوتر والحماس، فمنهم من كان يقفز في مكانه متشنجًا، غير قادر على البقاء ساكنًا، بينما الآخرون يمسكون رؤوسهم بين أيديهم، غير مصدقين ما يرونه أمامهم. أصوات الهتاف والصفير اخترقت الهواء، وأصبحت الساحة غارقة في فوضى من الضجيج والتشجيع. الأعين متسعة بالذهول، والأفواه مفتوحة بصدمة غير مصدقة، بينما الابتسامات العريضة ترتسم على وجوههم في سعادة غامرة.

الوجوه مشدودة، والقلوب تخفق بإيقاع متسارع، كأنما كانت تواكب دقات الطبول التي لا تزال تدوي في الأرجاء. كلما تساقطت ثمرة بلح جديدة، ارتفع مستوى الصراخ والهتاف، وكأنهم يشهدون معجزة تحدث أمام أعينهم. كانت تلك اللحظة بالنسبة للجميع تأكيدًا على أن سالم ليس

مجرد متنافس آخر، بل بطل يمتلك قدرات تفوق التوقعات. في نفس اللحظة، كان الجميع يشعر بأنه جزء من شيء أكبر بكثير.

وصلت الدقة الخامسة والسبعين بعد المئة، وكان الوقت ينحسر بسرعة مذهلة، حيث بدأ الجولة تتجه نحو نهايتها، وكانت حصيلة سالم قد بلغت ما يقارب الخمسين ثمرة من البلح. بينما كان يرتب نتائجه، أسرع سالم ليلتقط البلح المتناثر بجوار عموده، وبدأ ينقله بحرص شديد إلى نعجته المربوطة قربه.

كانت الأنظار تتجه نحو باقي المتنافسين الذين كانوا يراقبون الأمر باندهاش، وكان بعضهم يحاول تقليد سالم، إلا أن عبد الفتاح والعربي كانا استثناءً، حيث تمكن العربي من إسقاط عدد أقل من البلح مقارنة بما أصابه سالم.

لكن بقية المتنافسين، بم فيهم محمد، فشلوا في تقليد سالم، فكان مستوى مهارتهم ودقة تصويبهم متدنيًا جدًا بالمقارنة مع سالم، الذي كان عبقريًا في فن الرماية. كانوا يخطئون الأهداف بشكل متكرر، أو يصيبونها دون أن يتمكنوا من إسقاط أي شيء، مما أدى إلى فقدانهم السيطرة على أعصابهم وانفعالهم في الحلبة.

كانت زهرة تراقب المشهد بفارغ الصبر، فرحة جدًا بما فعله سالم، ولكنها لم تستطع أن تخفي قلقها العميق على مصير أخيها، الذي كان على وشك الخسارة. نظرت إلى صديقه بياني، وسألت بتوتر: "ما الذي يفعله عبد الفتاح؟ لماذا لا يرمي الحجارة مثل البقية؟"

ابتسم بياني لها بود، وأجاب براحة وهو يفرك شعر ذقنه: "صحيح أن عبد الفتاح أخوك، ولكنك لا تعرفين مدى غروره. لن يرضى أن يقلد أحدًا، وهناك شيء واحد أعرفه عنه، إنه يؤمن إيمانًا عظيمًا بأن قوته ستحل مشاكله."

تعجبت زهرة من قوله، ولكنها لم تجد كلمات ترد بها، فبقيت صامتة، تتأمل في كلام مرافقها وتتساءل عن معناه العميق.

وصلت الدقة إلى ثمانية وثمانين بعد المئة، وكانت النتيجة واضحة، حيث ضمن سالم فوزه بالجولة، بجانب العربي الذي كان أداءه متميزًا أيضًا. أما الآخرون، فكانت بطون نعاجهم خاوية تمامًا، ومن بينهم عبد الفتاح الذي كان يتعصر غضبًا، وانتفخت أوداجه، واحمر وجهه، وضاق ذرعًا من هتاف الجماهير باسم سالم.

عندها، تقدم عبد الفتاح بخطوات ثابتة نحو العمود، وشابك أصابعه خلفه، ومال إلى الوراء، وبدأ يصرخ صراخًا مدويًا وعظيمًا يرعب الجميع، وهو يسحب بكل قوة. ظن الجميع أنه فقد صوابه، ولكن سرعان ما عرفوا أنهم كانوا على خطأ عندما رأوا العمود الكبير يميل باتجاهه، كان يظهر قوة هائلة لا يستهان بها.

وفي لحظة حاسمة قال عبد الفتاح وهو يعتصر ويضغط: "لن يكون هذا العمود حدًا لمقدرتي." ثم صاح بأعلى صوت وسحب العمود حتى انكسر ورماه ليسقط بشدة على الأرض، فسقط كل البلح بالقرب من شاته.

وكانت تلك الدقة خمسة وتسعين بعد المئة، حيث وقف عبد الفتاح وأسرع نحو ثمار البلح والتقطها جميعًا بسرعة هائلة، ثم وصل نعجته ووضع الثمار تحت فمها بسرعة فائقة.

بوم! وصلت الدقة الأخيرة، فانفجرت الجماهير بجنون وهستيريا، غير مصدقين لفوز عبد الفتاح في تلك اللحظات الحاسمة، المشحونة بالتوتر والارتباك والحماس. تقلبت المشاعر وانقلبت الأوضاع، فقد أصابهم اليأس والخمول لعدم قدرة أفضل المتسابقين على فعل شيء في البداية.

لكن قبل أن ينهاروا، جاء سالم وغيّر ميزان اللعبة لصالحه، ثم وبشكل أكثر جنونًا، حقق عبد الفتاح الفوز، الذي لم يكن في حسبان أي شخص!

في الساحة الواسعة، توافدت الجماهير من كل حدب وصوب، ملئت المكان بحماسها وتفاؤلها. صدحت الأصوات بالتصفيق والتصفير، وسط هتافات الفرح التي ألهبت الأجواء بالحماس والبهجة. وفي ذلك الجو المفعم بالحياة، تألق ثلاثة شبان: سالم، وعبد الفتاح، والعربي، حيث رفعوا على أكتاف المشجعين وسط أصوات الفرح المرتفعة.

وبينما كانوا يبتهجون ويضحكون، كانت السعادة تغمر قلوبهم بشكل لم يسبق له مثيل. فقد انتقل سالم، الذي كان يعتبره المجتمع مجرّد راعي إبل بلا شأن، إلى مكانة بطل في نظر آلاف الحاضرين، وكل ذلك بعد أن تعرض للظلم والإهمال من قبل والده الذي يراقبه من بعيد، متحسرًا على عدم مشاركته لابنه في هذه اللحظة الأيقونية.

وكانت دموع الفرح تتساقط من عيون الحاضرين، ولاسيما من عيون الشيخ الشيباني، الذي أسرته فرحة نجاح ابنه وتفانيه في سعيه نحو الفوز.

وفي نهاية المطاف، تألق عبد الفتاح بحصد المركز الأول بفضل جهوده المبذولة في جمع أكبر كمية من الثمار، وتبعه سالم بأداء مميز جدا، بينما حصل العربي على المرتبة الثالثة بأداء متميز أيضًا.

ومع ذلك، لم يكن الحظ مع الباقين، الذين لم يحالفهم النجاح في الحصول على أي ثمرة، باستثناء محمد، الذي أقصي أيضًا من المسابقة، لتنتهي الجولة بفرحة وحزن، اندثرت فيها أحلام البعض وتحققت لآخرين.

بينما كانت زهرة تحاول بصعوبة الوصول إلى الأمام في تلك الزحمة الشديدة، كان صديق أخيها يمد لها يد العون لتسهيل عبورها. وفجأة، ظهرت لها صورة مألوفة، صورة سالم وهو يتوسط الحشود، جالسًا على أكتاف أحدهم، ومغمورًا بالسعادة العارمة.

وبجانبه، كان أخوها عبد الفتاح، ينظر إليها بابتسامة، فتقدمت نحوه بسرعة ونادته باسمه. لم يتأخر عبد الفتاح في الرد، وضحك بصوت عالٍ، وهو يقول: "أنت هنا؟" ثم هبط إليها وضمها بحنان.

أعربت زهرة عن فرحتها لفوزه، فردّ عليها وهو يضحك: "لقد تخليت عن معتقداتي قليلا، فكدت أخسر، لكنني استرجعتها في النهاية."

ضحكت زهرة وردت: "أفهمك يا أخي."

وفي تلك اللحظة، قال لها عبد الفتاح بابتسامة ودية: "وماذا عن متسابقك المفضل؟ ألن تهنئيه على فوزه؟"

شعرت زهرة بالارتباك، والخجل، ولم تستطع إلقاء نظرة نحوه، بينما كان عبد الفتاح يبتسم بانتصار. قال لها بحماس وهو يسحبها نحوه: "سأدعوه من أجلك."

"تعال، سالم! تعال إلى هنا." صاح عبد الفتاح بصوت عالٍ، ينبعث من داخله الحماس والفرح.

ولكن، لم يكن هناك أثر لسالم، لم يكن موجوداً، فأعاد الصياح باسمه مرارًا وتكرارًا، ولكن سالم كان مفقودًا تماماً.

*****

(11)

بين الدماء والدموع. سالم

في وسط الحشود الضاجة، حيث تتلاطم الأصوات وتتداخل الأجساد، كان سالم يتصارع مع الزحام، وسط محاولات الناس لاستيقافه وإخباره بأمور لم تكن تعني له أي شيء في هذه اللحظة. فقد كانت كلمات زيد، صديقه المقرّب، قد ألقت بثقلها على قلبه، وحوّلت فرحته بالفوز إلى خوف وهلع.

خرج سالم هاربًا من بين الجموع، يركض بأقصى ما يملك من سرعة، يبتعد عن ساحة المسابقة ويسابق الزمن. وكلما زادت سرعته، زادت المسافة التي تفصله عن هدفه، وتسارعت دقات قلبه المتوتر. يدعو في صمته أن تكون الأمور على ما يرام، وأن يأتي بأسرع ما يمكن.

زيد، الذي لم يفارق جانب صديقه، يشير إلى تجمع الناس أمامهم، فتسارع الاثنان نحو المكان المزدحم، بالخوف المختلط بالقلق الذي يعلو وجوه من كانوا هناك.

تقدم سالم ببطء، وأفسح له الناس الطريق، وكأنهم يعرفون ما سيواجهه. وبينما كان يتقدم، تحولت أعظم مخاوفه إلى واقع مرير أمام عينيه، حيث وجد جثتين ملقيتين على الأرض، جثتين لمن كانت أمه وأخته الصغيرة كريمة، يغمرهما بحر من الدماء.

انتابت سالم موجة من الضعف، فسقط على ركبتيه ونطق بكلمات التوكل على الله "لا حول ولا قوة إلا بالله"

ثم امتلأت عيناه بالدموع وانفجر بالبكاء، وهو يحاول بيأس لمس جسديهما، ولكنه عاجز عن ذلك، يشعر بأنه فقد كل شيء، أمه وأخته الوحيدة.

زيد، الذي كان يقف بجواره بلهفة، لم يصدق ما رأى، فقد كان يأمل في أن يجد أمه وأخته بخير. كان يتأهب ليصافحهما ويهنئهما على نجاح سالم، ولكنهما وجدا طريقهما إلى الموت على يد رجل مجهول محملاً بفأس ضخمة في يده.

أما سالم، فيواجه الآن واقعًا أليمًا، فقد أمه وأخته الصغيرة، وبقي الآن وحيدًا من غير أب ولا عائلة.

قاطع تفكير زيد، الذي لاحظ يد كريمة التي أخذت تتحرك ببطء. "يا سالم،" همس بصوت متمتم.

لكن لم يكن هناك جواب. استمر الصمت مكان الرد، "سالم،" نادا زيد مجدداً، وهو يدفع كتف سالم.

"ماذا بك؟" ردّ عليه سالم بلا حياة، مع انكساره تحت وطأة الألم.

أتى الرد من زيد وهو يشير بإصبعه نحو كريمة: "كريمة تحرك يدها"

رفع سالم رأسه ببطء، وسط شعور يائس يغمره تجاه حياتها. بدأ يتحرك نحوها بخطوات مترددة، مع كل خطوة يزداد تشوشه وخوفه. وعندما وصل إليها، بدأ يفحصها باندهاش ورعب.

وجد ذراعها ممزقة ومجروحة بجروح عميقة، والدماء تتسرب من جبينها. انخرط سالم في مشهد الفوضى، وجعل أذنه ترتحل على صدرها المصاب. وفي هذا الوقت، وبين الدموع والألم، وجد سالم الأمل الذي كان ينتظره، كانت البشارة التي كان يبحث عنها. ورفع رأسه قائلا: "لم تغادر الحياة جسدها بعد."

*

انبعث رائحة الدماء الطازجة من قميص سالم، وهو يضمد ذراع كريمة بأنامل مرتعشة. حملها بين يديه، وانطلق بخطوات متثاقلة نحو المخيم، بينما بقي زيد ينتظر بجانب جثة رحمه، يترقب حضور سيده الشيباني.

وبينما يسرع سالم في أروقة المخيم، وجد نفسه أمام سيدة كبيرة في السن. "أين أجد طبيباً؟"، صرخ بها بينما يحمل كريمة المصابة.

"إنه في الطرف الآخر من المخيم، أسرع بها إليه فهي تفقد الكثير من الدماء!"، أجابت السيدة بنبرة قلقة.

انطلق سالم بسرعة، لسانه لا يتوقف عن ترديد الدعاء، "اللهم يسر، اللهم يسر." وكانت أنظار الناس في المخيم تتبعه بدهشة، وهو يجتاز بين الخيام بجسد كريمة الضعيف. وعندما وصل إلى المخيم الآخر، سأل بعض الأطفال عن مكان الطبيب.

"هل تقصد السيدة عيشة؟"، سأل أحدهم.

"هل هي طبيبة؟"، استفسر سالم.

"نعم، خيمتها هناك،" أشار طفل بيده نحو خيمة كبيرة على اليمين، وسار سالم نحوها وهو يحمل مصابته بين ذراعيه، في سباق مع الزمن لإنقاذ حياتها.

بأنفاس متسارعة، أسرع سالم نحو الخيمة، ودخلها وسط همهمة الناس وصرخات الألم. "السلام عليكم، أرجوكم ساعدوا أختي، إنها على وشك الموت!"، همس بينما يحمل كريمة المصابة بين ذراعيه.

التفتت امرأة منقبة الوجه إليه، وقالت بصوت ملتحم، "هاتها إليّ، أحضرها هنا بسرعة."

دنى سالم منها، وأرقدها برفق على الأرض. تفحصت الطبيبة المنقبة كريمة بعناية، ونزعت قميص سالم عن ذراعها، لتكتشف الجرح العميق الذي ينزف بشدة.

"لقد فقدت كثيراً من الدم، علينا أن نوقف نزيفها فوراً"، قالت الطبيبة بصوت ثابت، ونظرت إلى سالم بعيون تعبر عن القلق. ثم أتبعت " خذ تلك السكين، وضعها في النار هناك"

أمسك سالم السكين ووضعها في النار كما طلبت، ثم أحضرت الطبيبة بعض الأعشاب وصبت عليها الماء، وهي تشير له ليحضر السكين. فأحضرها بعناية، وهي تلمع بالحرارة، أخذت الطبيبة قماشاً وبدأت بتنظيف الجرح برفق.

ثم أخذت السكين وضغطت على الجرح بقوة حتى كوته، صرخت كريمة من شدة الألم، فقال سالم بحزن، وهوي حاول تثبيتها "اهدئي يا غاليتي."

بعد ذلك، نزعت الطبيبة سكينها ووضعت يدها في الأعشاب المبتلة، وأخذت القليل وعصرته من الماء، ثم وضعته على مكان الجرح وقامت بتضميد الجرح برفق، وقالت لسالم بلطف، "لقد أوقفنا النزيف، اخرج من فضلك، سأهتم بالباقي."

"هل ستنجو؟"، سألها سالم بقلق وهو يتمسك بيد كريمة.

"فعلت ما بوسعي، أدعو الله لها، غالباً ستكون بخير إن شاء الله"، أجابت الطبيبة بتفاؤل.

زفر ســالم بعمق، وقال الحمد لله، وعيناه تتلألأ بالدموع التي تنسـكب بحرية. ثم تحول وخرج من الخيمة، جالسًـــا أمامها وهو يدفن وجهه بين ركبتيه، وينهمر البكاء حزنًا على موت أمه وإصابة كريمة.

*

وقفت الطبيبة تمســح العرق عن جبينها، وعيناها تراقب ســالم باندهاش بعدما أنهت إســعاف كريمة وضمدت جرحها. "من يكون هذا الشاب؟"، تساءلت في نفسها قبل أن تنتبه إلى صدره العاري. "أستغفر الله العظيم،" همست لنفسها بعدما رأته، ثم أسرعت نحو صندوقها المعدني الكبير واستخرجت قميصًا أبيض.

تقدمت إلى سالم دون أن تلتفت له، وقالت بصوت هادئ، "الطفلة ستكون بخير."

نظر لها سالم بابتسامة وقال، "جزاك الله خيراً."

وجد الطبيبة تشــيح بنظرها بعيدًا، ويدها ممدودة نحوه وفيها القميص القماشــي. "أرتدي هذا، فأنت عاري الصدر"، قالت بلطف.

تذكر سالم نفسه وعبوره كل المخيم وهو عاري الصدر، تناول القميص من يدها وقال، "جزاك الله خيراً." ثم أتبع بصــوت متعب، "هل يمكنك أن تعتني بأختي كريمة؟ ســأذهب لأقوم بالتحضير لجنازة أمي."

انقبض قلب الطبيبة، حزنًا على ما أصابه، وقالت بصوت هادئ ومليء بالرحمة، "أسرع إليها، سأهتم بأختك."

رد عليها سالم بابتسامة وقال وهو يستعد للوقوف "شكراً لك"

ثم انطلق ذاهباً، تاركًا كريمة وراءه، في عهدة الطبيبة التي كانت تنظر له وهو يغادر تتسـاءل عن المأساة التي حلت بهذه العائلة المسكينة.

*****

(12)

دموع في أرض النصر

كان الشيخ الشيباني، الرجل ذو الحكمة والسلطة، يجلس بجانب الأمير عثمان، وكلاهما يراقبان الجماهير المتجمعة، وهم يشجعون المتنافسين في البطولة الملتهبة، حيث كانت الأجواء مليئة بالحماس والإثارة.

وبعد لحظات، حضر عبد الفتاح إلى خيمة الأمير، وبجانبه زهراء وصديقه بياني، وكذلك محمد ابن الشيباني. عندها وقف بعض الرجال في الخيمة وصفقوا له تقديرا لقوته وإصراره، ضحك عبد الفتاح وقال، "توقفوا رجاءً."

وقف الأمير وقال بفخر، "لقد أثبتت مدى قدرتك، لقد اخترت هذا التحدي خصيصاً لك، لكنك كنت فوق توقعاتي، أنا فخور بك يا بني."

رد عبد الفتاح بتواضع، وهو يهز رأسه "شكراً يا أبي، والشكر لكم أيضاً، لكنني لم أفز بعد بالبطولة، فهناك خصم يتربص، وينافس، ليفوز علي."

ضحكت زهراء بخفة، فنتبه والدها إليها وقال، "اذهبي لأمك يا زهراء."

ردت ببراءة، مطأطئة الرأس "حاضر يا أمير"، ثم انصرفت.

قال الشيباني وهو يتقدم ويضحك، "أين سالم؟"

رد عبد الفتاح، "لا أدري، لقد اختفى فجأة، لم أره."

سخر الشيخ أحمد، "لابد أنه هرب، فالجولة الأخيرة ليست ضمن قدرة العبيد."

رد عليه صلاح، ابن الأمير، "مع احترامي لك يا شيخ أحمد، لكن ذلك العبد أثبت أنه أفضل من ابنك الحر المكرم."

عض أحمد على أسنانه ولم يرد. فيما نفض الفرفار كمه وقال "ابنه، على الأقل لم يجلس في الخيمة يشاهد فقط."

ابتسم صلاح في صمت. في حين ضحك عبد الفتاح وقال، "أخي ليس مهتماً بإثبات نفسه وشجاعته، فلو كنت أجشع وأكثر تحملاً للمسؤولية من أخي لختارني الأمير لأكون خليفته. لكن الفرق شاسع بيني وبينه."

ضحك الأمير وقال بموافقة "صدقت القول."

رد الشيباني، مظهرا إعجابه "لو شارك صلاح في البطولة لخسرتم جميعاً."

قال محمد ابن الشيباني، "أتفق معك يا أبي، هو ليس فقط ذكياً وحاذقاً، بل قوته كأبيه، ما شاء الله."

ضحك أحمد بتصنع وقال، "صدقتم القول."

في نفس الحين أخفى الفرفار الغيظ تحت الابتسامة ولم يرد.

نهض أحد أقارب الأمير فجأة وسأل مقاطعا، بدهشة، "لماذا الجماهير تغادر؟"

تفاجأ الجميع ونظروا نحو الجماهير ليرَوا الكثير منهم يهرعون بسرعة. تقدم الأمير بسرعة وصاح بصوتٍ عالٍ، "ماذا هناك؟ فليعرف أحد ما الذي يجري!"

أســـرع بعض رجاله ليتبينوا الأمر، في تلك اللحظة ظهرت خادمة تقترب من جهة الجماهير وهي تصيح، "يا شيخ، يا شيخ!"

نظر الشـيخ الشـيباني نحوها وعرف أنها إحدى خادماته. تقدم متلقياً لها وأمسـكها، وقال بقلق، "ماذا هناك؟ تحدثي!"

ردت بعينين ممتلئتين بالدموع، "يا، يا شيخ، رحمه!"

صاح بها الشيباني بقلق، وهو يهزها "تحدثي!"

أجهشت بالبكاء وقالت بين الشهقات، "رحمه قتلت يا شيخي!"

رماها الشيخ من يده، وسقطت على ركبتيه وصاح بصوت عالٍ، "لا!"

صاح الأمير بالخادمة "أخبريني بما حدث."

تحدثت الخادمة بصـوت متقطع متأثرة بالبكاء، "إنها خادمة الشـيخ، وهي أيضًـا أم سـالم، العبد الشاب الذي يشارك في المسابقة."

صدم الكل بما قالته، وصرخ الأمير بغضب، "يا رجال، اللعنة عليكم جميعا إن لم تخرجوا لي قاتلها، والله لا يسلم من شري لأقتصن منه لما فعل في أرضي وبضيفي."

تطاير رجال الأمير في كل اتجاه، مسـلحين بالبنادق والسـيوف، مسـتعدين للبحث عن القاتل. وفيما هاجت حالة من الفوضـى في المكان، تقدم الأمير نحو الشيخ الشيباني بحالة من الصدمة، ووعد بأنه سينتقم لها عاجلاً أو آجلاً، لكن الشيخ الشيباني، وبحزن أخذ المسؤولية على عاتقه، معلنًا أنه المسؤول عن موتها.

ثم وقف وصـــاح على ابنه عمر، الذي حضـــر وبرفقة جواد الشـــيخ، وقال للأمير، "ســـأذهب لتحضير جنازتها." وانطلق مسرعًا نحو مكان رحمه.

أعلن الأمير بحزن، وهو يشير بيده "أخبروه أن يدق".

بدأ دق الطبل العظيم بعد لحظات، عشر مرات. فسادت الصمت على كل من بقي من الجماهير. ثم أعلن أنه ســيتم تأجيل الجولة الأخيرة من البطولة حتى ينتهي حداد الشــيخ على خادمته ويتم العثور على قاتلها.

وفي همســات بين الجماهير، بدأوا يتســاءلون من الذي قتل أم ســالم، ولماذا؟ كان واضــحًا أن الحادث له صلة بالبطولة، لكن من الذي سيستفيد من موت الخادمة البريئة؟

*

كان الشـيخ الشـيباني يسـرع في طريقه، وصـوته يردد "إنا لله وإنا إليه راجعون" بينما يتوجه نحو التجمع الذي شــاهده من بعيد. وعندما وصـل، صــاح بهم ليفترقوا، ودخل بينهم حتى رأى جثة رحمه ممددة على الأرض، ووجهها مغطى بقميص مهترئ.

تقدم زيد، الذي كان يجلس عند رأس رحمه، وأمســك لجام الحصـــان. فنزل الشــيخ ودنى من الجثة، وأزال قطعة القماش عن وجهها، ليرى الشـيباني عينيها المغمضـتين وجرحها الذي كان ينزف. تغلبت الدموع على العجوز الشيباني عندما رأى حالتها.

كانت حالتها مأسـاوية، رأسـها مكسـورًا ودمها يغطي الأرض، وكان وجهها شـاحبًا وشـفتاها جـافتـان. قلب العجوز يتألم لما أصـــاب حبيبته، ويندم على كل لحظة فاتته، لولا أنه تركها في العبودية.

مسـح الشـيخ دموعه وأمسـك يدها، ثم قال بكل حزن، "الله يرحمك يا رحمه، سـآخذ لك بثأرك من ذلك الجبان."

ثم غطى وجهها، وتوجه زيد ليشــــرح الوضــــع، مؤكدًا أنه كان هناك رجل يحاول قتل كريمة الصغيرة، وحاولت رحمه إيقافه لحمايتها.

سأل الشيخ، وهو يطالع الحضور بعينيه "هل رآه أحد منكم؟"

أجاب زيد، وهو يشــبك بين أصـــابعه "كانت أمي قادمة من المخيم ورأته من بعيد، لكنه هرب بعدما ضرب كريمة بفأسه."

سأل الشيخ "ماذا عن الفتاة الصغيرة؟ هل ماتت أيضًا؟"

أجاب زيد، "لا، لم تمت بعد، وجدناها حية، أخذها سالم للمخيم ليجد من يساعدها."

أمر الشــيخ زيد بالبحث عن ســالم والبقاء معه، ثم بدأ في لف ثوب حول جثة رحمه بمســاعدة بعض النساء الحاضرات. ثم حملها على جواده وذهب بها إلى المخيم حيث سيتم تهيئتها لتدفن.

*****

(13)

حزن مفاجئ. زهرة

ساد الصمت على كل النساء الجالسات في الخيمة، وهن يستمعن بتركيز شديد لكلمات أمباركه والشيخ الشيباني. كانت القصة صدمة مفاجئة لهم، فلم يتوقعوا سماع خبر قتل خادمة وابنتها على يد رجل ما. الهواء داخل الخيمة كان ثقيلاً برائحة البخور المحترق، مما زاد من شعور الكآبة والضيق.

انقبضت قلوبهن، وبدأت الدموع تتساقط من عيونهن، خاصة زهراء التي لم تستطع إخفاء حزنها الشديد. ضغطت زهراء فمها بكفها وتقرقرت عيناها، ثم اندفعت إلى البكاء المتواصل. أصوات بكاءها كانت تتناغم مع الصمت المطبق داخل الخيمة، مما زاد من تأثير الحزن على الجميع.

سألتها والدتها بقلق، "ما بكِ يا عزيزتي؟ لماذا تبكين؟" كانت والدتها تجلس بجانبها، ترتدي عباءة سوداء تزينها خيوط ذهبية، وعيناها مليئتان بالقلق والحيرة.

لم تتمالك زهراء نفسها، فقد كانت صدمة كبيرة تجتاحها، وهي تحاول جاهدة التحدث بين نفحات البكاء. "أمي، أنا، أنا..." توقفت قليلاً وتابعت بصوت متقطع، "رأيت، رأيت جارية الشيخ وابنتها، وقاتلهما أيضا."

حاولت والدتها أن تستفسر منها، "ماذا قلتي؟ كيف حدث ذلك؟" ولكن كلماتها ضاعت في بحر دموع زهراء التي لم تتمكن من الإجابة، بل استمرت في البكاء المتواصل.

"يجب أن نخبر الأمير بهذا،" قالت السيدة بصوتٍ متوتر، وهي تنظر حولها بعيون قلقة، كأنها تبحث عن حل لهذه الكارثة.

أوقفتها مريم، زوجة عبد الفتاح، بلطف، "انتظري، سيدتي، فالأمير يُخاطب أهل القبيلة الآن." كانت مريم تحاول تهدئة الأجواء، وعيناها تنظران إلى زهراء بحنان وحسرة.

ردت السـيدة بحيرة، "هذا جنون! كيف يمكن لشـخص أن يُقتل في أرض الأمير؟ وأنتِ، يا زهراء، هل فقدتي عقلكِ؟ كيف تذهبين دون علمي؟" صـوتها كان مرتفعاً ومليئاً بالغضب والقلق، بينما كانت النساء الأخريات يهمسن بخوف وقلق.

حاولت مريم تهدئتها، "دعيها، يا سـيدتي. إنها مصـدومة ومنهارة الآن." كانت كلماتها تحمل الكثير من التفهم والرحمة، وهي تضع يدها بلطف على كتف زهراء.

زفرت السـيدة بقلق وقالت، "اسـتعدوا الآن، سـنعود للمخيم." بدأت النسـاء في الخيمة بجمع متعلقاتهن بسـرعة، وهن يتبادلن النظرات المليئة بالخوف والتوتر. كان النهار مشـرقاً في الخارج، والشـمس تسـطع بقوة على الرمال الذهبية التي تحيط بالخيمة. لكن رغم الضـوء السـاطع، كانت قلوب النسـاء مظلمة بالحزن والقلق، وهن يتهيأن لمغادرة المكان بسـرعة والعودة إلى أمان المخيم.

*

الهدوء سـيد الموقف بينما الناس يتوجهون إلى المخيم، كان الأمير اسـتثناءا حيث عاد إلى خيمته، وبصـحبته أكابر رجال القبيلة وبعض الضـيوف. جلسـوا ليناقشـوا ويتجادلوا بشـأن الجريمة.

"أبي، أعطني الأمر، وسأجمع جميع رجال القبيلة وأقوم بالتحقيق معهم." قال عبد الفتاح.

ردّ صلاح عليه بتردد، "هذه ليست بفكرة سديدة. قد يهرب الجاني لو علم بأمر التحقيق."

قال الشيخ الفرفار، "لكن هذا ليس أمرا مهما، إنها مجرد خادمة وقد ماتت."

غضب الأمير وضغط قبضته دون أن ينطق بكلمة وهو يسمع كلمات الاستهزاء.

أكد الشيخ أحمد، "لا يا فرفار، ليست الأمر مجرد خادمة. إنها خادمة الشيخ الشيباني، وقد أسيلت دماؤها في أرض الأمير. لو تركنا الأمر يمر ببساطة، فقد ينظر إلينا الأعداء بازدراء واستنقاص. لذا لا يمكن تمرير هذا الأمر بسهولة."

صدق صلاح، "لقد صدقت يا سيدي، سنعرفه إن شاء الله."

وقف الأمير وسكت الجميع. "تعال هنا بسرعة،" قال الأمير لبدري بإشارة الإستدعاء.

حضر بدري وقال، "ماذا هناك، يا أمير؟"

أجاب الأمير، "اذهب وأحضر كل شاهد على الحادثة، إلى مقامنا في المخيم."

رد بدري، وهو يخطو للخلف "حاضر، سأفعل ذلك الآن."

نهض الأمير ثم أعلن "اعذروني جميعًا، سأذهب لأكون مع الشيخ الشيباني في جنازة جاريته. سنكمل المجلس لاحقًا."

خرج الأمير وتبعه عبد الفتاح وصلاح وبعض الرجال الحاضرين نحو المخيم وسط أجواء من التوتر والقلق بسبب هذا الحادث المفاجئ.

*****

(13)

ميراث الحزن

على أرض شداد، وسط أجواء ملبدة بالغموض والحزن، كان سالم يسير بخطى ثقيلة، وجهه مغمض وقلبه مثقل بالأحزان. كان يستحضر ذكرياته مع والدته، التي كانت تعتنى به وتحتضنه بكل حنان ورعاية كل يوم منذ صغره. ومع كل خطوة يخطوها، تزداد مآسيه وحزنه.

فجأة، صدمه أحد المارة، فتساقط على الأرض مصابًا، ولكنه لم يكتف بالألم الجسدي، بل كانت الآلام الروحية تملأ قلبه. وبينما كان يجثو على الأرض، شعر بالضعف والفراغ يتسللان إليه كالظلال المظلمة.

بينما كان يمسح دموعه، كان في داخله دعاءً تضرع فيه إلى الله، يطلب فيه الرحمة والصبر في مواجهة هذا الابتلاء العظيم. لقد كانت حياته مليئة بالمحن والصعاب، لكنه كان يعلم أنه إذا ثبت وتوكل على الله، فإن الخير سيأتي.

وهكذا، بين نفحات البكاء والدعاء، وجد سالم نفسه يتجه نحو بداية جديدة، محملا بثقة بأن رحمة الله ستشمله وتحميه في كل الظروف.

تحت أشعة الشمس الحارقة، نظر سالم لزيد وهو ينحني فوقه، ولاحظ غموضًا يلف وجه صديقه. بينما كانت الكلمات تتداول بينهما، أسرعت قلوبهما بخوف وحزن.

"زيد؟" سالم بصوت مرتجف، متسائلًا.

"تقمد الله أمك برحمته." رد زيد، بينما كانت عبارات الحزن على ملامح وجهه.

"آمين، أشكرك يا أخي." استلم سالم يد زيد الممدودة له، وساعده على الوقوف، معبّرًا عن تضامنه، وطيبته.

وأثناء سيرهما داخل المخيم، وجدو الناس يتجمعون أمام خيمة الشيخ، فأدركا أن الأمور تأخذ منحى خطيرًا.

"أين أمي؟" سأل سالم بصوت مرتفع، ولكن لم يجد إجابة إلا من الناس الذين كانوا يقيمون الواجب الأخير للمتوفاة.

"انتظرني هنا للحظة." قال زيد متجهًا نحو خيمة الشيخ بينما يعبّر وجه سالم عن قلقه العميق.

وبعد لحظات قصيرة، خرج الشيخ مصطحبًا زيدا معه، فرأى سالم والده يتقدم نحوه بخطى ثقيلة، فشعر بالتشتت والارتباك. لم يكن يعرف كيف يتصرف، فالحزن والغضب يتلاطمان في قلبه. هل يلوم والده، أم يتقبله بصدر رحب. ظل ينظر إلى والده بعينين مليئتين بالدموع، مترقبًا رد فعله.

في أحضان الصحراء الشاسعة، حيث تتلاشى الحدود بين الزمان والمكان، تدور قصة خيط بين روحين متشابكتين بالحزن والأسى، مزجت الألم بالأمل في صفحاتها القليلة.

في ظُهر يوم مشمس، وقف الشيباني تاركاً ظلاله الطويلة ترقب الحدث الحزين الذي ينتظره، وعلى وجهه ملامح الأسى واضحة، أمامه صبي صغير يدعى سالم، وقد ابتسم الشيباني له بحنان وقال بصوتٍ متأثر: "كيف حالك يا بني؟" وبينما كان يتقدم نحوه، اكتشف سالم للمرة الأولى أن والده يطلق عليه لقب "بني".

وبينما تدفقت الدموع من عيني الشيباني، رفع سالم رأسه بحيرة، فلم يكن يعرف أن والده كان يفكر فيه بهذه الطريقة، فقطع صمته بأمانة وقوة داخلية قائلاً: "أنا بخير، أشكرك يا سيدي".

وحينها، أتبع قائلا: "هل يمكن أن أرى والدتي لآخر مرة"، وضع الشيباني يده برفق على كتفه وهو يقوده باتجاه خيمة التقسيل، وسارت خطواتهما باتجاه المكان المحزن حيث سيقسم بينهما ميراث الحزن.

في لحظة من الصمت المؤثر، كسرتها أصوات الكلمات الهامسة بين الشيباني وسيدة عجوز:

"هل جهزت الجنازة؟" سـأل الشـيباني بصـوت متردد، وعلى وجهه تعبير الحزن الممزوج بالتفاؤل.

"نعم، تم الأمر يا سيدي"، ردت عليه العجوز بصوت هادئ مليء بالرحمة.

"سندخل عليها أنا وابنها، وأنتم يمكنكم الرحيل، نحن سننقلها لمكان الصلاة"، أعلن الشيباني قراره بثقة وهدوء.

أومأت السيدة بالإيجاب، وذهبن.

دخل الشيخ وسالم إلى الخيمة، وكانت كل أغطيتها الجانبية منسدلة، كما لو كانت تشارك في حزنهما العميق. رحمة راقدة على الأرض، ملفوفة في كفنها، تنتظر مصيرها الأخير. الحزن يقطع قلبيهما، وهما يقتربان من الجثة الهادئة.

سقط سالم بجانبها، ووضع رأسه على جسدها البارد، يحتضنها بشدة، والدموع تنهمر من عينيه بينما ينوح بين الحين والآخر، يدرك أنه سيفتقدها للأبد. يحاول احتضان جثمانها لأطول وقت ممكن، وظل يتمسك بها بكل قوته، في لحظات هي الأشد وطئًا عليه.

جلس الشيخ الشيباني بجوارهما، يبكي في صمت عميق، فلم يكن أقل حزنًا من سالم، وكان من الصعب عليه قبول الأمر، فهو الآخر يعاني من فقدان شعلة قلبه، التي كانت تضمن لهما دفء الحنان وعطف الرعاية.

مرت لحظات أخرى، واستعاد الشيباني هدوءه، ومسح دموعه برفق، ثم قال بصوتٍ هادئ مليء بالحزن: "هيا يكفي يا سالم، علينا بتعجيل دفنها".

رفع سالم كتفيه ببطء، ونظراته تتجه نحو الأرض كأنه يحاول إخفاء ألمه العميق، ثم صمت عن البكاء. وبينما تحاول الكلمات أن تجد طريقها من بين شفتيه، قال بصوتٍ مكسور ينبعث من دواخله: "لماذا تحمل نفسك عبء البكاء على مجرد خادمة، يا شيخي؟"

اهتز ضمير الشيخ من وقع كلماته، ثم رد مبررًا: "إنها خادمة عزيزة، كجميع خدمي، وأحزن."

"كفاك هراءً"، قال سالم مقاطعًا بصوت بارز وغاضب، ثم رفع وجهه وشعره المبلل من الدموع، منسدل على عينيه. نظر نحو الشيخ وأتبع قائلاً: "أنا أعرف كل شيء حصل بينك وبين أمي، كنت مؤمنًا تمامًا بمدى حبك لها، لكن ذلك الإيمان تبدد الآن."

زفر الشيخ الشيباني وقال بحزن: "إيمانك كان في محله." رد سالم ببرود: "لا أهتم لصدقك المفتعل يا سيدي، أو علي أن أقول: يا أبي."

*****

(14)

بين الحياة والموت. وصية العجوز

وسط عاصفة رملية شديدة، حيث لا يمكن رؤية شيء بسبب الغبار الكثيف الذي يملأ الأجواء، كان الشيخ الشيباني يتقدم بحذر، يحاول شق طريقه للأمام. كان قد تأخر عن قافلة التجار التي كانت تعود من المغرب نحو الجنوب، حيث يقطن. السير في الغبار الكثيف والجو الحار كان صعباً للغاية، ولم يكن معه سوى جواده الوفي، عداء. كانت مياهه قليلة، وبالتالي، قرر الشيخ أن يتوقف ويجلس، ويغطي نفسه، في انتظار هدوء العاصفة وتتضح الرؤية، لكيلا يضل عن طريقه.

ظل الشيخ جالساً، وهو يمسك بلجام عداء، وسارت الساعات ببطء شديد حتى شعر بانقشاع العاصفة. بدأ يزيل القطاء عن وجهه، ورأى السماء تبدو بزرقتها الباهتة. لحظة وقوف وانتفاض، نفض الرمال عن ثيابه، وأخذ قربة الماء الصغيرة من على ظهر حصانه، شرب منها بخمول ثم صب بعض الماء في كفه وقدمها لعداء، الذي شربها بشغف.

كان الوقت يمضي بسرعة، والشيخ يسير في أرض فارغة من الحياة، والجو صافٍ، والرياحة هادئة. كان يتمنى أن يلحق بالقافلة التي كانت تقترب ببطء. وفجأة، توقف عداء، وهمهم بشيء غير مألوف، ففهم الشيخ الأمر، فعداء كان دائماً يظهر فطنته وحدسه العالي في التعامل مع الأمور الغريبة.

"تو " تأتأ الشيباني، وقال بتوتر: "اهدأ يا عداء، هل هناك أمر ما؟" بدأ يمسح على رقبته، وحاول أن يهدأ لكي يسمع صوتا أو يرى شيئاً. مرت لحظات، وبعدها سمع الشيباني صوتًا ينادي من بعيد. فركب على ظهر عداء، وسكت مجددًا يحاول تحديد اتجاه الصوت حتى سمعه وكان عن يمينه، فأسرع وصاح بعداء لينطلق.

تعالت أصوات تكسر الطين الجاف تحت حوافر عداء، الذي كان ينطلق بسرعة والشيباني يصيح به "أسرع"، ويقول في نفسه: "يبدو كصوت امرأة." سحب بندقية ولقمها، تحسباً لأن

يكون هناك قطاع طرق. بدأ الصوت يكون أكثر وضوحاً، وما مرت لحظات حتى بدا له خيالًا أسودًا من بعيد لشخص يقف بجانب رأسين من الإبل. عندها صاح بعداء ليسرع في جريه.

وبعد لحظات، وصل الشيباني ووجد امرأة تقطي وجهها وهي جالسة، ويرقد في حضنها رجل عجوز، وبجانبهما ناقة وجمل. قالت المرأة وهي تبكي: "أرجوك، ساعدنا، سيدي ليس بخير." نزل الشيباني بسرعة، واقترب منهما وتفحص الرجل، وبعد لحظات أخبرها بأنه على وشك الموت. عندها، أجهشت المرأة بالبكاء غير مصدقة لما قيل، وردت: "مستحيل كان بخير أول النهار، كيف سيموت هكذا؟" أجاب الشيباني بلطف: "الأعمار بيد الله."

فتح الرجل عينيه، ونظر للشيباني، وقال: "الحمد لله أن الله بعثك لي، يا ولدي". ثم شهق عدة مرات، وعاد ليقول: "أنا ليس لي من أهل سوى خادمتي هذه، أرجوك خذها، سترثها أنت عني، ولكن عندما تجد لها رجلا يرضيها، حررها وأعطيها كل ما تراه من مال هنا، أرجوك يا ولدي اقبل طلب هذا العجوز، لا أستطيع تركها وحدها، فهي كابنتي." أطمأن الشيباني وقال: "لا تقلق، سأتكفل بأمرها، وأنفذ وصيتك إن شاء الله يا سيدي."

رد الرجل: "الحمد لله." ثم عاد ليشهق مجددًا ويعتصر من ألم الموت، واتبع قائلاً: "أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله." عندها ارتفع صدره كما لو أنه يتلقى سلامًا، وبعدها سقط وعيناه شاخصتان بالسماء.

صرخت المرأة: "لا، سيدي." وبدأت تبكي وتنوح حزنًا على سيدها. نظر الشيباني لها بتعاطف وقال: "رحمه الله."

*

دفن الشيباني الرجل العجوز، وبدأ يعد لرحلته، وأثناء ذلك سأل المرأة: "ما اسمك؟"

فردت وهي تمسح دموعها: "أنا رحمه."

قال لها الشيباني وهو يجمع اغراضها: "هل يمكنك نزع قطاء وجهك لأراك؟"

ردت باستحياء: "حسنًا يا سيدي." ثم مدت يديها بارتجاف ونزعت عن وجهها.

تفاجأ الشيباني من منظرها، فقد كانت فائقة الجمال وصغيرة السن أيضًا. قال لها محاولاً إخفاء إعجابه: "استعدي، سآخذك معي إلى أهلي، وستعيشين هناك إن شاء الله."

ردت بحزن: "شكرا لك يا سيدي."

كان الشيباني شابا في عقده الرابع من عمره حينها، وقد أصبح شيخ فخظ الكمداني قبل أعوام قليلة من لقائه برحمه. عاد لمخيمه، وأهله، وفخظه، ومعه رحمه التي أصبحت جاريته.

مضت الأيام، وكان الشيباني يهتم لرحمه بشكل خاص عن كل عبيده وجواريه، ويحميها ويرعى شؤونها. ومع الوقت ولدت مشاعر الحب بين الإثنين، وتعاظمت بمرور الزمن.

ولكن الشيخ لم يجرؤ على أن يعتقها ويتزوجها لكونه يخاف من عادات أهله واعتزازهم بالنسب، وكونه متزوجًا من أربع من بنات عمه.

أمور كان لزامًا على الشيباني احترامها، أو أن هذا هو ما كان يدعيه. هو لم يقدر أيضا أن يزوجها لأنه لا يصبر على فراقها، كما كانت هي أيضًا.

وظل العجوز يترقب الفرصة لجعل رحمه زوجته محل ارتياح الجميع، لكنه لم يتوقع اليوم المشؤوم الذي يفقدها فيه، ومعها ترحل كل آماله وأحلامه كالغيوم التي تتلاشى مع الريح.

والآن، يقف ابنه، الذي يعاني من العبودية بسبب ضعفه، يملومه، ويحمله وزر ومسؤولية فقدان والدته بسبب تقصيره.

الشيباني، ودموعه تسيل على وجنتيه، يقول: "لقد أحببتها بصدق يا بني، لكنني كنت ضعيفًا، وهي تحملت عبء ضعفي، والآن فقدتها." نظر إلى سالم وقال: "بني، سأحررك وأعترف بك أمام الجميع و."

لكن سالم قاطعه قائلاً: "لا، شكرًا، سأنال حريتي بنفسي، لا أحتاج تعاطفك."

وقف سالم يحمل جثمان أمه وقال بغضب: "فات الأوان على ندمك يا والدي."

انقبض قلب الشيباني وهو يسمع كلمات ابنه تخترق سمعه وتتجه لقلبه. خرج سالم وهو يحمل أمه بين ذراعيه متوجهًا إلى المصلى. بقي الشيباني في خيمة التقسيل يبكي ألمًا وهو يقول: "لماذا تركتني يا رحمه؟ أصبح عالمي موحشًا، بدونك، وقلبي يملأه الفراغ، يا رب امنحني الصبر على فراق حبيبة قلبي."

وصل سالم المصلى ووجد الكثير من الناس يحتشدون هناك، وفزع من المشهد المربك، حيث رأى الجميع يحدقون به، بينهم الأمير وأبناؤه صلاح وعبد الفتاح، وغيرهم. تقدم سالم بخطى مترددة ووضع أمه في اتجاه القبلة. ثم جاء شيخ عريق في القبيلة ليؤم الناس في الصلاة. ووقف الشيباني بجانب الأمير، بينما وقف سالم أمام جثمان والدته، يلقي آخر نظرات على وجهها، ودموعه تنهمر على وجنتيه بينما يسترجع ذكرياتهما الجميلة سوياً.

بعدما سلّم الإمام انصرف بعض الناس، وتقدم سالم بخطوات ثقيلة ليحمل أمه، وجاء صديقه زيد ليقدم يد العون، وكذلك صلاح ابن الأمير.

وسوياً حفر سالم وزيد القبر، ووضعا جثمانها برفق في أحضان التراب الذي سيحتضنها. ثم بدأ سالم بردم القبر وهو يتلو دعاءً تكرارياً: "اللهم اغفر لها وارحمها وتجاوز عنها."

بعد أن أنهى ســـالم دفن والدته، تقدم إليه الأمير ببالغ التعاطف، قائلاً: "تغمدها الله برحمته، اصبر يا بني، فهذا امتحان من الله لمدى صبرك وتوكلك."

رد سالم بحزن مؤثر: "جازاك الله خيراً يا أميرنا."

أكد الأمير وهو يمسح كتف سالم: "لن أرتاح حتى أقتص لها يا بني."

فوافق ســـالم بكلمات مؤثرة، ومســـح دموعه وأومأ بالإيجاب. بعدها تقدم الأصـــدقاء والأقارب لتعزية سالم، ثم تفرقوا تدريجياً، وبقي سالم وحيداً يجلس بجوار القبر، يضع يده عليه، مغمضاً عينيه بحزن، مسترجعاً ذكرياتهما الجميلة معاً.

"السلام عليكم." أتى ذلك الصوت لسالم.

"وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته" رد سالم بلباقة على الفتاة التي ظهرت فجأة خلفه، ترتدي ثوبًا أسود وتخفي وجهها بقطعة من القماش.

"أتيت لأعزيك في أمك، رحمها الله"، قالت الفتاة بحزن ملحوظ.

"آمين، لك الشكر يا أختي. من تكونين؟"، سأل سالم وكأنه يعرفها.

"كيف حال أختك كريمة؟ هل نجت؟"، سألت الفتاة بحنين وحزن في صوتها.

نظر سالم إليها بتساؤل وقال: "أنت الفتاة التي تشاجرت مع كريمة اليوم في المسابقة؟"

عندها كشـــفت الفتاة عن هويتها، قائلة بصـــوت هادئ: "نعم، أنا هي، واســـمي زهرة، بنت عثمان."

*****

(15)

المؤامرة والندم

في زاوية الخيمة المظلمة، جلس الشـــيخ أحمد، وهو ينبض بالتوتر الشـــديد الذي يلفه من كل جانب. وبنبرة قاسية قال بتوبيخ: "أدخل".

دخلت الشخصية المخيفة لبرهوم، ومعها حمولة من الأخطاء. وقف الشيخ أحمد بصمت، ترقبًا لتبرير برهوم لتهدئة غضبه، قبل أن يوجه له صفعة قاطعة، ارتطمت بوجهه بقوة.

"أحمق!" هتف الشـيخ بصـوت مشـحون بالغضـب، وطالب برهوم بشـرح لتصـرفاته الغبية. "كيف تتجرأ أن تتخطى أوامري؟ لقد جعلتنا نقف على شفا الهاوية بفعلتك الحمقاء!"

برهوم، برغم محاولاته التبريرية، لم يجد سـوى ألم الاعتراف بخطأه. "عذرًا، سـيدي، لم يكن ذلك بقصـدي. كان حادثا غير متوقع، تلك المرأة اعترضـت طريقي. لم أتوقع أن تكون النتيجة بهذه الثقل."

لكن هذه الاعترافات لم تخفف من غضـب الشـيخ، الذي اسـتمر في الهجوم بكلمات حادة. "كل هذا بسبب غبائك! لقد كنت واضحًا، طلبت منك فقط إيذاء الطفلة قليلًا لمنعها من المشاركة في المسابقة. لم أكن أعني قتلها!"

برهوم، وهو يشعر بالندم العميق على تصـرفاته، يعترف بخطأه ويعبر عن أسفه. "أنا متأسف، سيدي."

في لحظة من الصـمت، صـرح الشـيخ أحمد بقراره النهائي. "اسـمع، اذهب واختبئ في حديقة النخل الخاصة بي، ولا تسمح لأحد برؤيتك."

برهوم أومأ بصمت، يعبر عن امتنانه للتسامح الذي أظهره الشيخ، ووافق على الأمر. "حسنًا، سأفعل ذلك."

بقي الشـــيخ أحمد في الخيمة، حيث يعمل عقله على تقديم حلٍ للمأزق الذي وقع فيه بســـبب تصرفات برهوم. عندها خرج من الظلام، ابنه شيخنه يتبختر، ليروي له أخباراً صادمة.

اقترب شيخنه بحذر، " أبي، هناك شيء يجب أن تعلمه، الفتاة لا زالت حية."

تتجهز العيون الحزينة للشـيخ أحمد، بينما ينفث الهواء بقوة. "ماذا تقول؟ لا زالت حية؟ يا الله، ما هذا الأمر المأساوي! برهوم اللعين، قد فضح نفسه أمامها أيضا!"

"نعم، أبي،" يؤكد شيخنه، "والأمر لا يبشر بالخير. إذا رأت وجهه."

"هذه مصيبة حقًا!" يتأمل الشيخ بحزن، "علينا أن نجدها ونخرسها قبل فوات الأوان."

"أين تعتقد أنها قد تكون؟" يسأل أحمد بترقب.

تأمل شيخنه للحظة، ثم قال بحزم، "على الأرجح ستكون عند أحد الأطباء المداوين، إن كانت بحالة سيئة جدا."

"فكرة جيدة،" يرد أحمد بابتسامة مريحة، "هيا، جدها، وافعل ما يلزم."

"حاضر،" قال شيخنه بثقة، وهو يغادر خيمة والده بسرعة، سعيًا وراء إنقاذ الفتاة المظلومة.

*

استفاقت كريمة، وشعرت بألم حاد يتسلل في أعماقها، فتذكرت الضربة القاسية التي وجهتها من فأس برهوم، وأدركت مدى خطورة ما تعرضت له، ولكن كان هناك شيء أكثر رعبًا من الألم، هو تلك العيون المظلمة التي تحدق فيها بشراسة، وتلك الابتسامة المرعبة الممزوجة بالشر والحقد.

قال شيخنه بلطف: "ما أسمك يا صبية؟"، وكان يقصد كريمة.

ردت كريمة بخوف وتلعثم: "أنا كريمة".

قال بلطف: "اسم لطيف. أخبريني يا كريمة، من فعل هذا بك؟"، وأشار إلى إصابة ذراعها.

بكت كريمة وقالت: "إنه رجل كبير ومتوحش".

قال شيخنه بحزن: "للأسف، ذلك الرجل قد قتل أمك".

تسارعت ضربات قلب كريمة، وقالت بضعف: "أمي ماتت".

أكد الشيخ: "هذا ما حصل للأسف، ولكن هذه ليست المشكلة. فهذا الرجل المتوحش يريد قتل أخاك سالم أيضًا".

بكت كريمة بشدة وقالت: "أرجوك سيدي، أنقذ أخي، لا أريد أن يصيبه مكروه".

للأسف، أجاب شيخنه: "لا أستطيع ذلك".

انهمرت دموع كريمة وقالت: "أرجوك، لا، إلا أخي سالم"، ثم غلب عليها البكاء.

نظرت كريمة إلى شيخنه بحرقة، فابتسم بخبث ثم وضع يده على كتفها الصغير، وقال: "أوه يا كريمة، لا تبكي، أرجوك، سيكون أخاك بخير، فهناك شخص يستطيع إنقاذه".

ردت كريمة وهي تجهش بالبكاء: "من يكون، أرجوك".

قال شيخنه: "إنه أنت، طبعاً".

قالت كريمة بدهشة: "أنا!، كيف؟".

أجاب شيخنه: "ربما سيأتي هنا بعض رجال الأمير ليسألوك عن الرجل الذي ضربك، لكن إياكِ أن تخبريهم بشيء عنه، فهكذا تكونين قد ختمتِ على حياة أخيك سالم. فالرجل سيسعى لقتل أخيك انتقامًا منك لكشف هويته. بمعنى أصح، حياته بين يديك".

سكتت كريمة قليلاً، ثم أجابت: "حسناً يا سيدي، إذا لم أخبرهم بشيء، هل سيدعنا الرجل وشأننا؟"

أكد شيخنه: "نعم، هذا ما سيحدث".

ردت كريمة: "حسناً، لن أخبرهم بشيء".

وابتسم شيخنه وقال: "حسناً، أحسنتِ، هكذا تكونين قد أنقذتِ أخاك من هلاكه".

فجأة دخلت الطبيبة عيشة الخيمة فوجدت الشيخ يحدث كريمة، فقالت: "ماذا تفعل هنا يا شيخنه؟ ابتعد عن الفتاة فوراً، إنها مصابة".

نظر شيخنه إلى عيشة وابتسم، وقال: "آه، أختي الحبيبة عيشة، كيف حالك؟ لقد أتيت لأزورك".

ردت عيشة وهي تتقدم نحوه: "حسناً، وماذا تفعل بجلوسك بجوار الفتاة؟ إنها مصابة بشدة، هيا، ابتعد من عندها".

نهض الشيخ مبتعدًا، وهو يقول: "حسناً، حسناً، لا تغضبي، كنت فقط أحدثها عما أصابها".

اقتربت عيشـــة من كريمة وتفحصـــتها، فوجدتها ما زالت تجهش بالبكاء، ثم قالت: "اهدأي يا صغيرتي، أنت بخير، كل الأمور على ما يرام"، وبعد ذلك ضمتها لصدرها محاولة تهدئتها، ثم أشارت لشيخنه لينصرف.

لم يرد وغادر المكان، وهو يقول في نفسه: "تشيه، ستكون طبتها سببًا في هلاكها".

قالت كريمة ببكاء: "لقد ماتت أمي، لقد ماتت".

دق قلب عيشـة حزناً لما أصـاب هذه الفتاة. أن تشـهد موت أمها أمام عينيها، وهي في هذا السن الصـــغير، أمر ليس بالهين. ضـــمتها أكثر وقالت وهي تحاول تخفيف الصـــدمة على الطفلة: "عزيزتي، لا تحزني، لابد أنها سـعيدة الآن وهي بجوار ربها، لا تحزني، فأخوك سـيأتي إلى هنا قريبًا، لذا لا تحزني، أرجوك".

نظرت لها كريمة وهي تقول: "هل أخي سالم سيأتي؟".

أجابت عيشـــة: "بالطبع سـيعود، فهو من أحضـــرك هنا، لقد أنقذنا معًا حياتك وأنت بخير الآن بفضله".

ابتسمت كريمة وقالت: "هل هو بخير؟".

سـكتت عيشـة متذكرة حالة الحزن التي كان يغرق فيها سـالم، ثم قالت وهي تبتسـم: "نعم، إنه بخير وســـيعود إليك قريبًا، لذا عليك أن لا تحزني، فعندما يراك حزينة قد يصـــيبه الحزن هو الآخر، وأنت لا تريدين ذلك لأخيك، صحيح؟".

قالت كريمة بتفهم: "بالطبع، لا أريد".

قالت عيشة وهي تخفض قناعها وتبتسم: "حسنًا، إذا استلقي لكي تتعافي بسرعة، سأذهب لأعد لك بعض الدواء".

استلقت كريمة وقالت: "أنت طيّبة حقًا، وجميلة أيضًا".

ضحكت عيشة وهي تقول: "شكرًا، هذا لطف منك، صغيرتي."

بعدها ذهبت. ابتسمت كريمة وهي تستلقي، ثم بدأت تفكر بحزن في أمها.

*

حلّ ظلام يومه كانت بدايته فرحًا ونهايته حزنًا وخوفًا. اجتمع الأمير والعديد من الرجال في خيمته الإمارة، التي كانت منارة بنار موقدة في قلبها، ويلتف الرجال حولها مشكلين مجلسهم.

قال الأمير وهو مستند على مرفقه ويحك شعر ذقنه: "يا بدري، ماذا حدث بشأن ما أمرتك به؟"

وقف بدري وأجاب: "لقد جمعت الشهود وأخذت بعض المواصفات ولكنها غير دقيقة، وجمعت كل من اشتبهت به وفقًا لهذه المواصفات، وعددهم حوالي ثلاثين رجلًا وهم في الخارج الآن".

قال صلاح وهو يرفع يده: "الفتاة الصغيرة ما زالت على قيد الحياة، ولا بد أنها ستتعرف على وجه الجاني، إذا عرضناهم عليها ستتمكن من التعرف عليه إن كان من ضمنهم".

قال الشيباني: "لا تلك الفتاة صغيرة جدًا، وهي مصابة للغاية، وستكون مصدومة جدًا إثر الحادثة، ولن تكون في حال يخولها للتعرف على الجاني".

قال صلاح بادئ الأمر: "أيها الشيخ، المعذرة، ولكن لا ضير في المحاولة".

رد الشيخ الفرفار: "للشيباني حكمة في ذلك، لكل واحد منّا وجهة نظر يجب احترامها".

أجاب أحمد، مؤيدًا الشيخ: "حقًا يا فرفار، معك حق".

نهض الأمير وبدأ يتجول حول النار، وهو يفكر، وفجأة قاطعه دخول عبد الفتاح الذي كان غائبًا. ثم تقدم نحو الأمير وقال: "هناك أمر يحب أن تعرفه".

سأل الأمير بفضول: "ماذا هناك؟".

اقترب عبد الفتاح من أذنه وهمس له ببعض الكلمات.

وعبر وجه الأمير عبارة التعجب وسأل بترقب: "هل أنت جاد؟".

أجاب عبد الفتاح مؤكدا: "نعم".

قال الأمير بجدية وثقة: "انتظروني هنا"، ثم خرج من الخيمة وتبعه عبد الفتاح.

ساد الذهول والاستغراب على الرجال الحاضرين، واشتدت رغبتهم في معرفة ما قاله عبد الفتاح للأمير، خاصة الشيخ أحمد وابنه شيخنه، حيث لا يبدو لهما أن خبر عبد الفتاح في صالحهما. بدأ بعضهم يتهامس لبعض، حتى مرت لحظات من الانتظار...

فجأة، قاطع ذلك الانتظار صوت الأمير القوي يأتي من خارج الخيمة، وهو يقول: "بدري، تعال إلى هنا". خرج بردي مسرعًا وتبعه كل الرجال، فوجدوا الأمير يقف وبجواره عبد الفتاح وزهراء التي لم يتعرفوا عليها وهي تقطي وجهها.

قال الأمير بوضوح: "بدري، أحضر الذين اشتبهت بهم".

أجاب بردي بحركة رأس بسيطة: "حاضر".

ثم غاب بدري قليلاً وعاد، ويتبعه الكثير من الرجال. وقف الرجال أمام الأمير، بعضهم خائف والبعض الآخر يشتكي، يقولون: "نحن لم نفعل شيء يا أمير، لماذا نعامل هكذا؟".

تقدم الأمير وقال بثقة: "لا تقلقوا، هناك قاتل في هذا المخيم، وأنتم تم الاشتباه بكم، وربما يكون القاتل بينكم وقد لا يكون، لذا لا تقلقوا".

ثم نظر الأمير للخلف وقال: "زهرة، تعالي هنا فورًا".

سارعت زهرة إليه، فقال الأمير: "ابنتي، قد رأت وجه الجاني، وستتفحصكم لتعرف إن كان موجودا بينكم". نظر لزهرة وأتبعها قائلاً: "هيا، تقدمي."

تقدمت زهراء بخطوات مترددة وهي تعبث بشريط الخوف والارتباك في دواخلها، وبدأت في فحصهم بانتباه شديد، وإلى جانبها بياني يحمل شعلة لتنير وجوههم في هذا الظلام الدامس.

مرت اللحظات وزهرة تتأمل المشتبه بهم بعيونٍ مترقبة، تفقدتهم واحدا تلو الآخر، وبعد ذلك بلحظات استدارت نحو والدها، وقالت بتأكيد: "أبي، يشبهونه في هيئته البدنية، ولكنه ليس موجودا من بينهم".

أومأ الأمير بفهم، وانتقل بخطوات ثابتة نحو الرجال، قائلاً: "اعذروني، فأنا ملزم بالقصاص من القاتل".

رد بعضهم بلطف: "لا تحرمنا من عفوك، يا أمير، وحفظك الله"، ثم بدأ البعض في المغادرة.

وقف الأمير في غضب شديد وهو يتحدث بصوت محتدم: "يا بدري، لا ينام أحد منكم حتى تتمكنوا من العثور على هذا الجبان. زهرة ستقدم لكم وصفاً دقيقاً له حتى تتمكنوا من التعرف عليه، وأريد أن يُحضر أمامي سالماً أو ميتاً".

انتشرت حركة الاستعداد بين رجال الأمير بعدما وصفت لهم زهرة بدقة شكل برهوم للبحث عنه، وانطلقوا في مهمتهم بكل حماسة وإصرار.

على الطريق المؤدي إلى مخيم أولاد جلفون، تسارعت خطوات الشيخ أحمد وابنه شيخنه، الذي أعرب عن صعوبة الأمر بسبب بنت الأمير التي جعلت الأمور تتعقد.

أحمد أكد قلقه قائلاً: "تلك المدللة وضعت حياتنا في خطر".

رد شيخنه بكل هدوء: "أبي، لا أحب أن أقول هذا، لكن يجب علينا التخلص من برهوم".

توقف الشيخ أحمد عن المشي ورمق شيخنه بنظرة حادة وقال ب تساءل: "ماذا تقصد؟"

أوضح شيخنه بهمس: "إذا لم نتخلص منه الآن، وتم القبض عليه لاحقاً، سيقودنا إلى مصير خطير".

هز رأسه أحمد وأكد قائلا: "معك حق، فماذا نفعل؟"

شرح شيخنه: "إذا قتلناه ببساطة، سيكون من الواضح أنه لم يكن السبب وراء كل هذا، يجب أن نفكر في خطة للتخلص منه وتوجيه الاتهامات إليه وحده".

أبدى أحمد استعداده وهو يقترب من شيخنه قائلاً: "معك حق يا بني، أخبرني ماذا نفعل؟"

عندها توقف شيخنه يفكر بعمق في المكيدة المحتملة، وبعد لحظات قال: "سنحتاج للمساعدة، يا أبي".

أشار أحمد بيده بتساؤل: "من؟"

أجاب شيخنه وهو يمسح على خاتمه: " أحد قادر على..."

*****

(16)

جوع الروح وجوع البطن

فتح ســـــالم عينيـه، وهو ينظر بتمعن نحو الســـمـــاء في هـذا الجو الهـادئ والمظلم، والريـاح الخفيفـة التي تهـب بلطف ودفـء. بعدمـا غلبـه النعـاس عند قبر أمـه الراحلـة، نهض ونفض عنـه الرمل، مقرراً أن يتوجه إلـى كريمــة. فنظر نحو القبر، وقــال في صمت لنفسه: "الوداع يا أمي".[5]

ســـار ســـالم وحيداً في الظلام الكامن بين القبور، وكان يشـــعر بتعب وضـــعف. انطلق بخطواته المشتتة نحو المخيم، يسعى للوصول إلى خيمة الطبيبة عيشه. وبعد لحظات، وصل إلى هناك، حيث كانت تتوهج نار موقدة امام الخيمة. تقدم ســـالم بحذر حتى وصـــل إلى جانب النار، وقال بصوت هادئ: "السلام عليكم".

جائه صوت من داخل الخيمة يرد عليه بكل ترحيب: "وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته".

سأل سالم بود واحترام: "سيدتي الطبيبة، هل يمكنني رؤية أختي كريمة؟"

خرجت له خادمة في سنٍ متوسطة وقالت: "السيدة ليست هنا الآن، لكنها ستعود قريباً."

استفسر سالم بقلق: "وكيف حال أختي كريمة؟"

---

[5] تنبيه. كل الصور المستخدمة لا تشبه الشخصيات كما يتخيلها الكاتب، هي فقط لتوضيح المشاهد للقارئ.

أجابت الخادمة بلطف وهي تحاول أن تداري اعجابها بمحياه الوسـيم: "هي بخير، إنها نائمة الآن."

زفر سالم بارتياح، ثم سأل بتواضع: "هل يمكنني رؤيتها؟"

رفضت الخادمة بحزم: "لا يمكنني ذلك، فالسيدة حذرتني من أن يقترب أحد منها حتى تعود."

قال سالم بتقدير: "حسنًا، شكرًا".

ردت الفتاة بلطف وهي تتقدم خطوة نحوه: "هل يمكنني تقديم المساعدة؟ فأنت لا تبدو بخير."

أجاب سالم متواضعًا وهو يبتسم: "لا، شكرًا لك، لكني أحتاج بعض الماء لأتوضأ."

دخلت الفتاة وأحضرت الماء له بسرعة ثم جلست بقربه وهي تراقبه بشغف. قام سالم بالتوضؤ وبدأ في أداء صلاة المغرب التي تأخرت قليلاً، ثم جلس بجانب النار وبدأ في الدعاء.

مر بعض الوقت فحضـرت الطبيبة عيشـه، لتجد سـالم جالسـاً أمام خيمتها، مغمض العينين ومنغمس في تفكيره. فرحبت قائلة: "السلام عليكم".

تعرف سالم على صوتها ورد بود: "وعليكم السلام، سيدتي."

تقدمت إليه ثم سألت بلطف: "كيف حالك؟ هل أنت بخير؟"

أجاب سالم بثقة متزعزعة: "نعم، إنني على ما يرام."

جلست عيشه بجانب النار مقابله وقالت: "الحمد لله، وأختك كذلك بخير، ما شاء الله."

سأل سالم بابتسامة ولهفة في صوته: "هل استعادت وعيها؟"

أجابت عيشه وهي تحرك الجمر بعصى صغيرة: "نعم، استعادت وعيها وتحدثنا قليلاً قبل أن تعود للنوم قبل ساعة."

أبدى سالم فرحته وأطبق كفّيه وهزهما شاكرا فقال: "الحمد لله، شكراً لك، كل هذا بفضلك، لا أدري كيف أرد لك الجميل، سيدتي."

طالعته الطبيبة عيشه بنظرة خاطفة وردت بود: "أنا أعزيك في والدتك، الله يرحمها وليرزقك الصبر على فراقها."

أجاب سالم بتواضع، مطأطئ الرأس: "آمين، لك الشكر مرة أخرى."

بادلته عيشه بالتأكيد، ثم ساد الصمت بينهم للحظات، بعدها رمقته بنظرها وقالت بلطف: "هل أكلت شيئاً اليوم؟ لا تبدو بخير."

رد سالم بصوت هادئ ومحرج: "لا، لم آكل منذ ليلة أمس، لكنني بخير."

قالت عيشه بغضب: "هل ظللت طوال اليوم في المسابقة، وبعدها الجنازة، دون أن تأكل أي شيء؟"

أجاب سالم بضحك: "إنه أمر عادي، فأنا متعود."

شعرت عيشه ببعض الحزن يعتريها إثر كلماته، ثم دخلت خيمتها، وعادت بعد لحظات وفي يدها قدح مليء بالتمر الطازج وعليه كتلة من الزبدة، وقدح آخر فيه لبن. ثم وضعتهم أمام سالم وقالت: "هيا، تناولهم كلهم، وإلا لن ترى كريمة."

نظر سالم إليها باستغراب، ثم أعاد نظره إلى التمر ولم يلمسه.

سألته عيشه بقلق: "ما بك؟ لماذا لا تأكل؟"

أجاب سالم بصوت منخفض: "لا أستطيع."

تعالت دقات قلب عيشه، وسألته: "لماذا هل هناك خطب ما؟"

أجاب بحرج وهو ينظر نحو الأرض: "أعتذر عن تصـــرفي، ولكنني لســـت متعوداً على أكل الكثير من الطعام لوحدي."

اهتز فؤاد عيشـــه وعرفت أنه يفتقد أمه، واتضـــح لها أنه لم يتعود الأكل إلا معها. نادت عيشـــه خادمتها، فضيلة، وعندما حضرت جلست عيشه بالقرب من قدح التمر وطلبت من فضيلة أن تفعل الشيء نفسه، ثم قالت لسالم: "هيا، لنتناول معًا."

ابتسم لها سالم بتفهم وقال: "حسنًا، هيا نأكل."

ضحكت عيشه قليلاً وبدأوا جميعًا يأكلون، وكان واضحًا على سالم أنه يتضور جوعاً، فقد أكل التمر بشراهة، لدرجة أنه لم ينتبه لوجود النساء معه على نفس الطعام.

ضحكت عيشه من تصرفه وقالت: "حاذر يا سالم، كل ببطء حتى لا تقص."

أجابها وفمه محشو بالتمر: "آسف سيدتي، لكنني جائع، وهذا التمر شهي للغاية."

ضحكت عيشه وفضيلة من قوله، وتابعوا أكلهم معه.

بعد ساعات من الليل، كان سالم نائما أمام الخيمة في وقت متأخر من الليل، بينما كانت عيشه وأحد إخوتها وفضيلة نائمين في داخل الخيمة.

تضايق سالم هلوسات وأحلام بكريمة في نومه، ويتكرر قوله في نومه "سأحميك، سأحميك"، فخوفه من فقدانها يسيطر على تفكيره. ظل سالم بهذه الحالة حتى فتح عينيه فجأة، وليس وحده،

بل الذين في الخيمة قد استيقظوا أيضًا بسبب الصوت المزعج الذي يعرفه الجميع ويصدح من جميع أنحاء المخيم.

خرجت عيشه من الخيمة وسألت بغضب: "لماذا يدق الطبل في مثل هذا الوقت المتأخر؟"

أجابها سالم بفضول: "هل عادة ما يدق الطبل هكذا في الليل؟"

ردت عيشه: "لا، لابد أن هناك سبب ما."

*****

(17)

إيقاع منتصف الليل

"أيها الأمير، أيها الأمير!" تعالت أصوات النداء على الأمير.

خرج الأمير من خلوته بسرعة وهو عاري الصدر، وقال بجدية: "ماذا هناك؟ ما الذي جاء بك في هذا الوقت، يا فرفار؟"

أجابه الفرفار تقدم نحوه بسرعة: "خادمة زوجتي مفقودة، ولم نجد لها أثراً."

"ماذا تقصد؟ كيف فقدتها؟ أخبرني!" سأل الأمير بصوت مليء بالقلق.

أجاب الفرفار بوضـــوح: "كنت مع زوجتي على مائدة العشـــاء، ثم نادت زوجتي الخادمة لتحضـر، لكنها لم تأتِ. نادت عدة مرات، ولم تأتِ أيضـاً. غضـبت وخرجت لأجدها وأعاقبها، لكنني لم أجدها في كل مخيمي. أرســلت للبحث عنها في جميع أنحاء المخيم، لكننا لم نجد لها أثرًا. وأنا أخشى عليها."

غضب الأمير هو يغلق مصاريع قبضته وقال بجدية: "تخشى عليها من قاتل جارية الشيباني."

أكد الفرفار بكلمات صادقة: "هذا صحيح."

أراد الأمير أن يتجه نحو خيمته في ظلام الليل، ليرتدي ملابسـه، لكن صـوت طفل صـرخ في الظلام الليل فاجأه: "يا أمير، يا أمير، يا أمير."

نظر الأمير بدهشة وقال بصوت متوتر: "ماذا بك يا فتى؟ تعال إليّ."

تقدم الفتى بسرعة وقال بانفعال: "سيدي، لقد جاء رجل إلى مخيم شيخنا أحمد، واختطف خادمة ابن الشيخ."

صاح الأمير بدهشة وهو يرمي قميصه من يده: "خادمة أخرى؟ اختطفت؟"

أجاب الفرفار بجديّة: "لا بد أنه هو من اختطف خادمتي أيضًا."

قال الصبي وهو مرتعب من الأمير: "لقد تبعهم الشيخ أحمد وابنه شيخنه."

صاح الأمير بأمره الحازم: "أخبروا بدري أن يأتيني حالاً، وأيقظوا صلاح وعبد الفتاح أيضًا، ودقوا الطبل لتنبيه الناس."

*

في فترة زمنية قصيرة، سارت الخيل بخطى مسرعة تحمل على ظهورها كل من الأمير، وبدري، وصلاح، وعبد الفتاح، والفرفار، متجهين نحو الغموض الذي يحيط بالخاطف المجهول، وكذلك أحمد وشيخنه، اللذين كانوا يلاحقونه أيضًا. ووصل الأمير إلى حافة وادي النخيل، حيث هبطوا وبدأوا في التحرك بين الأشجار بحرص شديد، بحثا عن أي انحناءة أو صوت غير مألوف.

وبينما كانوا يتوغلون في أعماق الظلام، تملكتهم الشكوك حيث مرت الساعات دون أن يلمسوا أي إشارة. قال عبد الفتاح بصوت هامس: "أبي، هل أنت متأكد أنهم سيكونون هنا؟"

أجاب الأمير بتأكيد: "نعم، هذا ما أخبرني به أفراد عائلة الشيخ أحمد."

تدخل بصلاح بحنكة هامسا: "لنخفض الأصوات ونركز، فإذا سمعنا المختطف، قد يختبئ أو يهرب."

فجأة قاطعهم بدري بقوة، قائلاً: "اش، أسكتوا، هناك شيء ما."

بصوت هامس، سأل الر: "ماذا هناك؟"

أشار بدري بحذر نحو اليسار وقال: "انظروا، هناك ضوء خافت يظهر بوضوح."

عبد الفتاح أكد بتوتر: "نعم، إنه هناك، لنتحقق منه."

تقدم الخمسة ببطء وتأني، مراوغين بين أشجار النخيل، وسط الظلام المحيط. وكلما اقتربوا أكثر، زادت حدة الاستنارة التي ينبعث منها الضوء، حتى أصبح واضحًا أنه يأتي من شعلة مشتعلة.

باستيقاظهم للواقع المضيء، لمحوا أشكالًا تقف بجانب الشعلة، تحمل كل منها بندقية في يدها، وسط جوٍ من الغموض والتوتر.
سحب كل واحد من الخمسة بندقيته، استعدادا للاشتباك المباشر.

ولكن عندما وصلوا لجانب الشعلة، وجدوا شيخنه وأبيه أحمد، والخادمتين، إحداهما تعانق الأخرى بينما تنهمر الدموع من عينيها، مما أثار غموضًا أكبر حول ما يحدث.

قال الأمير لأحمد بصوت مرتعش وهو يخرج من بين الشجيرات: "ماذا يحدث هنا؟"

تفاجأ أحمد ونظر إليه بحزن عميق وقال بتردد: "سيدي الأمير، هل أتيت؟"

"نعم،" أجاب الأمير بصوت مليء بالقلق، "ماذا جرى؟ هل هاتان هما الخادمتان المفقودتان؟"

أجاب أحمد بنعاس: "نعم."

صـــلاح تدخل بســـرعة وهو ينبثق مع الآخرين من مخبئهم: "أين الرجل الذي خطفهما؟ هل هرب؟"

دره الشيخ أحمد بوجه حزين، ثم أشار بيده باتجاه معين وقال: "إنه هناك."

التفت الجميع برعب، ورأوا جثة غارقة في دمائها. تقدم بردي بسـرعة وتفحص الجثة برعب، ليجد أنها مذبوحة، وقد فارقت الحياة منذ فترة. قال بدري بصـــوت مرتعش: "إنه نفس الرجل الذي وصفته ابنتك زهرة، تماما."

نظر الأمير نحو أحمد وشيخنه بغضب متصاعد، وقال بصوت محمل بالتوتر: "هل قتلتماه؟"

رد شيخنه بحزم ملتزمًا: "نعم."

فرد عليه الأمير بغضــب متزايد: "أخبراني بما يجري، لما لم تقبضــا عليه وتأتياني به لأتحقق من مساعيه قبل قتله؟"

أجاب أحمد بصوت هادئ: "لم يكن الأمر بأيدينا."

قال الأمير بتوتر وهو يرمي بندقيته على الأرض: "فعلاً، وما سبب ذلك؟"

أجاب الشيخ أحمد بثبات: "سأفسر الأمر لك، أيها الأمير."

أجاب الأمير بصوت ثائر: "تحدث إذا."

قال أحمد بتوتر: "هذا أحد رجالي، واســـمه برهوم، عمره يقارب الأربعين، ولم يســـبق له أن تزوج من قبل لخوف النســـاء منه، ومن ســـلوكه المتعجرف، وبدأ يتجاوز حدوده مؤخرا،

ويتحرش بالخادمات في كل مكان. وكان واضحًا لي أنه قد جن أو على وشك أن يجن، لكنني لم أعطه اهتمامًا للأسف.

هوســه بالخدم أودى بحياة خادمة الشــيباني، وليس هي فقط. لقد تبعته أنا وشــيخنه لما ســمعنا صراخًا ونحن في المخيم، إذ تهجم على خادمة شيخنه، بينما كانت تقضي حاتها خارج المخيم، وبدا أنه اختطف واحدة أخرى عندما وجدناه. لكنني، وشيخنه، وصلنا متأخرين بعدما فعل بهما فعلته. حاولنا جعله يخضــع بالقول، لكنه كان خائفا، وفاقدا لعقله. وفجأة أخذ فأسًــا وهاجمنا، ثم اشتبك مع شيخنه قليلاً، بعدها ضربه شيخنه بسكينه على الحلق فذبحه دون قصد، وأصيبت ذراع شيخنه كما ترى. نظر الرجال إلى شيخنه وذراعه ملفوفة بقماشة مبتلة بالدم."

قال الأمير بغضب: "كيف لك أن تسمح لمسخ كهذا أن يتجول في مخيمي."

قال أحمد بحزن "أعذرني، لم أتوقع أن يصل الأمر لهذا الحد"

قال شيخنه: "إنه مجرد حيوان، لا أهل له، يستحق موته لاعتدائه على خادمتي."

أراد الأمير أن يرد، لكن قاطعه عبد الفتاح متسائلا: "كيف حال إصابتك؟"

رده شيخنه الذي احتضن الألم بصمته الطويل. "أنا، بخير حتى الآن."

وفي تلك اللحظة، تقدم صــــلاح بخطوات ثابتة نحوهم، حاملاً في يده لثاماً كان يغطي وجهه. بلطف بالغ، كشـــف عن ذراع شـــيخنه التي احمرت من الدماء. وبينما لف اللثام حول ذراعه المجروحة، أعرب صلاح عن تقديره لشجاعة شيخه، متمنياً له العافية والسلامة.

فيما بعد، تقدم الأمير بخطوات هادئة نحو الخادمتين اللتين كانتا ترتجفان من الخوف. وبينما كانت الدموع تتســاقط من عيونهما المذعورة، طمأنهما الأمير بأن الجاني قد مات، وأنهن الآن في أمان تحت رعايته.

وفي لحظة من الصمت، أجابت إحداهما بجرأة متواضعة، معبرة عن شكرها لله على سلامتها ولرجولة شـيخنه الذي حماهما بفدائية. وبينما أومأ الأمير بفهم وتقدير، أعلن عن انتهاء الخطر وعودتهم إلى المخيم، حيث سـيجدون الأمان والسـلام بانتظارهم هناك، بين أسـوار الحماية والرعاية من رجاله.

*

في أحضـان مخيم فخظ جلفون، انفتحت عينا كريمة ببطء عندما وصـلها صـدى الطبل العظيم الذي كان يدق بلا انقطـاع. وعلى الرغم من شـعورها بـالنعاس الثقيل، حاولت تمييز ملامح المكان المظلم من حولها، فرأت أشـخاصـاً يتجمعون خارج الخيمة، مما دفعها لتسـأل بصـوت متردد: "سيدتي عيشه، هل أنت هنا؟"

وبينما انعطفت عيشـه نحوها برفق، أكدت وجودها قائلة: "نعم، أنا هنا يا عزيزتي." ودخلت الخيمة، تسأل عن حال كريمة وتطمئن عليها.

فأجابتها بصوت هامس: "أعتقد ذلك، لكن ذراعي تؤلمني قليلاً."

طمأنتها عيشـه بنبرة مهدئة، ووعدتها بأن الألم سـيزول قريباً، وأنها فقط تحتاج للاسـترخاء لبعض الوقت لتشعر بتحسن أكبر.

"حسنًا، سيدتي، سأفعل"، أجابت كريمة بتردد، متعهدة بالاسترخاء كما أوصتها عيشه.

ولكن، فجأة، تبادلت النظرات بينهما، فسـألت كريمة بقلق: "ماذا عن أخي سـالم؟ هل لا يزال غائبًا؟"

ردت عيشه بثقة: "نعم، عاد قبل العشاء، ولكنه ذهب لمعرفة سبب دق الطبل في هذا الوقت."

استمعت كريمة باندهاش إلى هذا الكلام، ثم سألت: "هل هناك خطب ما؟"

أجابت عيشه بتردد: "لا أدري حقًا، لكنه ليس من العادة أن يدق الطبل في الليل."

وبينما تسربت بعض الشكوك إلى قلب كريمة، سألت بخوف خافت: "هل سيكون سالم بخير؟"

وفي محاولة لتهدئة قلقها، أجابت عيشه بابتسامة مطمئنة: "سيكون بخير بالتأكيد."

*

وسط همسات المتحدين التي تتسلل إلى مسامعه، سار سالم في أحد أروقة المخيم، يلتفت حوله وهو يرى الناس مستيقظين في هذا الوقت غير المعتاد بسبب دقات الطبل، ويشعر بالدهشة تجاه الأسباب الغامضة وراء ذلك.

وبينما كان يتجول، لاحظ تجمعًا من الناس حول شيء ما، فاقترب منهم ليتعرف على ما يجري. وعندما وصل، وجد أنهم يناقشون خبر اختطاف خادمة ابن الشيخ أحمد، وأن الأمير وبعض الرجال ذهبوا للبحث عن الخاطف.

في ذلك الوقت، تساءل سالم في نفسه من يكون الخاطف؟ وشعر بالحزن لأن الخبر زاد في ذهنه ذكريات أمه التي فارقت الحياة، فألقى نظرة حزينة نحو الأفق، مفكرًا فيما قد يكون في انتظارهم.

سار سالم بثقة بين الخيام نحو جانب الكمداني من المخيم الكبير، حيث كان يتوقع أن يجد بعض أصدقائه هناك. ولكن عندما وصل، فوجئ بالناس مستيقظين هناك أيضًا، مما جعله يشعر بالارتياح لعدم وحدته في هذا الوقت الغامض.

توجه نحو خيمة أمه ودخلها، فوجد شخصًا جالسًا في الظلام، لم يتمكن من تمييز ملامحه بسبب الظلمة. افتتح سالم الحديث قائلًا: "السلام عليكم ورحمة الله وبركاته."

رد الصوت بعمق، وبينما كان سالم يحاول التفكير في الهوية، اعترف الشخص بأنه زيد، مما جعل سالم يشعر بالارتياح. وعندها سأل عن سبب وجوده هنا، أجاب زيد بأنه كان ينتظر عودته ليقضي الوقت معه ويخفف عنه من الوحدة.

ابتسم سالم بامتنان وشكر زيد على وقوفه معه في هذه الأوقات الصعبة "شكرا لك".

فرد زيد بضحكة خفيفة، مؤكدًا أهمية وقوف الأصدقاء مع بعضهم في جميع الأحوال "أنا صديقك، لا تقل لي ذلك."

عبّر سالم عن قراره بأن يكون الصديق الحقيقي الذي يستحقه زيد "أنت تستحق الأفضل سأبذل جهدي لأكون أفضل صديق لك"

ابتسم زيد وسأل "كيف هي حالة كريمة الآن؟". قالها معبراً عن قلقه عنها.

أجاب سالم وهو يلتفت لباب الخيمة "إنها لقد تجاوزت مرحلة الخطر، ومع الطبيب الآن"

أراد زيد أن يسأل مجددا ولكن فجأة، توقف حديثه على صدى صوت دقات الطبل العظيم مرة أخرى، خرج الاثنان من الخيمة فرأو الناس يتجهون نحو شيء ما. فسارا وراءهم، يتساءلان عن سبب هذا الاضطراب الجديد، هل تم اختطاف شخص آخر؟ وبينما كانوا يفكرون في ذلك، لاحظوا كثيرا من الناس يتجمعون حول خيمة الأمير.

دخل سالم وزيد بين الحشود المتجمعة حول الخيمة، وسأل زيد أحد الرجال عن سبب دق الطبل مجدداً، فأجابه الرجل بأن الأمير ورجاله قد عادوا وقد وجدوا الخاطف.

هذا الخبر أثار صدمة سالم، وبدأ يتساءل في نفسه: هل يمكن أن يكون هذا الخاطف هو نفسه القاتل الذي قتل أمه؟

خرج الأمير من خيمته مصحوبًا بعددٍ من الرجال، بينهم الشيخ الشيباني، والشيخ أحمد، والشيخ الفرفار، وبدري. كان الجمع كثيفًا، وبومضة القمر المتأخرة توضحت الرؤية للحاضرين، حيث رفع الأمير يده مطالبًا بالصمت. "أبناء قبيلة أولاد شداد،" قال بصوتٍ مرتفع، "في هذه الليلة تم خطف فتاتين من خدم الشيخ أحمد والشيخ الفرفار على يد رجل مجنون." استمر الأمير بتفسير سير الأحداث، وكيف تمت مواجهة القاتل وانتهت بمصرعه. وبالرغم من تأثر الجميع بهذا الخبر، أكد الأمير بكل ثقة أن الجاني كان من داخل القبيلة، وفقًا لاعترافات الشيخ أحمد، الذي أكد على حالته العقلية المضطربة التي دفعته لارتكاب هذه الجريمة البشعة.

تعجب الحاضرون من هذا الواقع المروع، فكيف يمكن لشخص مجنون أن يهز قوة قبيلة بأسرها؟ وبينما كانوا يتأملون في هذا السؤال، طمأنهم الأمير بكلماته الطيبة، ووعدهم بالحماية والرعاية، وأنه سيبذل قصارى جهده لضمان سلامتهم وأمانهم من أي خطر مستقبلي. ومع إعلانه عن استئناف المسابقة والاحتفالات القبلية بعد يومين، انتعش الأمل في قلوب الحاضرين، وبدأوا في التوجه إلى خيامهم بعد أن أبدوا امتنانهم وشكرهم للأمير. وفي هذا الوقت، وقف سالم مدهوشًا وهو يفكر في الكلمات التي سمعها من الأمير، فقد أوفى الأمير بوعده واقتص من قاتل أمه، لكنه ما زال يشعر بعدم الارتياح لسبب ما.

وبينما كان سالم واقفًا في شروده، شعر بشخص يضع يده على كتفه، فلتفت فرأى أخاه محمد. "سيدي محمد،" قال سالم بتواضع. رد محمد بكلمات تعازيه، معبرًا عن حزنه لفقدان والدته، وكيف كانت طيبة ومحبة مع الجميع. وبعد شكره لمحمد، أكد محمد أن الله قد أخذ حق سالم من قاتل والدته، مما أعطاه بعض الارتياح. وبينما طأطأ سالم برأسه، أجاب بتواضع، معربًا عن موافقته. ثم دعاه محمد لرؤية والدهم، ورغم عدم رغبته، أجاب بالموافقة. وبصحبة زيد، تقدم الثلاثة بين الحشد، حتى وصلوا لحيث يقف الأمير ومعه جمع كبير من الرجال، بمن فيهم أبناء الأمير والشيوخ الثلاثة وبعض أبنائهم ورجالًا آخرين مثل بدري وشيوخ المحاظر[6] وأصحاب الثروة. وبينما لاحظ الجميع حضور سالم، اقترب الأمير منه ووضع كفه على كتفه، معلنًا بأنهم

---

[6] المحاظر هي مدارس تعليم القرآن الكريم وعلوم دين الإسلام

وجدوا قاتل والدته، لكنه متوفى الآن. وأكد على أن الأمر بيد الله، وعليهم أن يرضوا بمشيئته. شكر سالم الأمير على وفائه بوعده بالقصاص.

ابتسم الأمير وقال بثقة، "لا تشغل بالك، سيكون كل شيء على ما يرام، إن شاء الله. أما الآن، فكن مركزًا على الفوز بالبطولة، وتحقيق ما كانت تتمناه أمك، وهو حريتك." رد سالم بثقة وحماس، "سأحرص على فعل ذلك يا أميري." ضحك الأمير وتراجع للخلف، مزاحًا مع عبد الفتاح، وقال بابتسامة، "أنت في مشكلة، يا عبد الفتاح!" ضحك عبد الفتاح ورد قائلاً، "لا أظن ذلك، يا أبي." ثم أعلن الأمير بأن الجولة الرابعة ستكون مختلفة، مما جعل سالم يفكر في نفسه بأن الأمور لن تكون سهلة في الجولة القادمة.

*****

(18)

حكايات الفساد. العربي

تحت ستائر الظلام تقدم شيخنه إلى مدخل خيمة العربي، وقال بهدوء "السلام عليكم."

رد العربي ابن الفرفار بود، "وعليكم السلام، تفضل يا شيخنه."

وبينما يدخل شيخنه الخيمة، ضحك من منظر العربي الذي كان مستلقيًا عاري الصدر، وزوجته نائمة بجانبه. ثم أعرب عن امتنانه للعربي على المساعدة في نجاح الخطة، قائلاً: "نشكرك على المساعدة."

سأل العربي عن خادمة أمه، فأجاب شيخنه بأنها مع والده الآن. فضحك العربي بصوت عالٍ، وسأل وهو يداعب شعر صدره: "هل انطلت خطتك على أولئك الأوغاد الكمدانيين؟"

شيخنه وبكل فخر، وهو يبتسم، قال بسخرية، "نعم، لقد نلت منهم. حتى الأمير آمن بالمكيدة، وكان غباء برهوم في صالحنا، حيث استند أبي على فكرة أن برهوم كان على وشك أن يجن ليكون عذرًا مقنعًا لقتله."

رد العربي بسخرية، "محاولة والدك لمنع تلك الطفلة من مساعدة العبد على الفوز، ليست تصرفًا حكيمًا. حتى أنه لم ينجح في منعه من الفوز."

أجاب شيخنه بسخرية معترفًا بالحقيقة، "معك حق، والدي ليس بالرجل الحكيم، كاد يهلكنا بفعله."

ضحك العربي وأضاف، "كلى والدينا ليسا حكيمين على عكس ذلك العجوز الشيباني."

أعلن شيخنه بثقة، هو يغرز سكينه في أحد الصناديق "سنحل محلهم غريبًا."

سكت العربي قليلا ثم سأل بفضول، "متى ستكون الجولة الأخيرة من البطولة؟"

أجاب شيخنه بجدية مبتسما، "ستكون بعد يومين."

أبدى العربي اهتمامه قائلاً، "جيد، سنرى إلى أين سيصل العبد الصغير."

ابتسم شيخنه، وهو يدس سكينه في غمده وقال بحسن إيمان، "حسنا، سأذهب الآن، أراك غدًا." ثم خرج وانصرف لحال سبيله، تاركًا وراءه أثرًا من التفاؤل.

جلس العربي يكسر عظام أصابعه بغضب، ثم صفع رجل زوجته بقسوة، يطالبها بالاستفاقة. رفعت رأسها بتعب، وسألت بدهشة، "ما الذي حدث، يا عربي؟"

نظر لها بسخرية وقال "بجدية، لقد كنتِ تستمعين لما قاله شيخنه"

أقرت بذلك قائلة، "نعم، كان تصرف والده أحمقًا، وكاد أن يورطنا في مشكلة مع الأمير لو لم تنجح خطته."

أكد العربي، "معكِ حق، لذلك سأتأكد من أن تلك الخادمة الصغيرة لن تتحدث عن الأمر."

سألته زوجته بفضول، "ما الذي ستفعل بها؟"

أجاب بحدة، "هذا ليس من شأنك، وأرجوكِ أخرجي وأحضريها."

ألقت زوجته بابتسامة ساخرة "كما تشاء."

ثم غادرت الخيمة، تاركة العربي ينتظر بفارق الصبر. وبعد لحظات، انتبه لصوت يدعوه بسيدي، فقال بحزم "أدخلي."

دخلت الفتاة بخجل وتقدمت قليلا نحو العربي. مد العربي يده لها وقال لها وهو مبتسم "هيا تعالي إلى هنا."

ناولته يدها، فسحبها نحوه وأجلسها في حضنه، وكانت صغيرة مقارنة بحجمه الكبير. شعر بارتجافها ومحاولتها لكتم البكاء. قال العربي وهو يمسح دموعها، "ماذا هناك يا زينه؟ لماذا أنتِ خائفة هكذا؟"

أجابت برعشة في صوتها، "سيدي، لقد قتل صديقك ذلك الرجل المسكين."

أمسك العربي أناملها، وقال "آه، شيخنا، إنه شاب سيء حقًا." ثم قال بحنان يلفه الشر "هيا، أخبريني بكل ما حدث منذ ذهابك معه."

ردت الفتاة وهي تجهش بالبكاء وترتعد بشدة "لقد ذهبنا بعدك إلى مكان بالقرب من طريق وادي النخيل، وبعدها حضر الشيخ أحمد ومعه فتاة أكبر مني سنا، ثم سرنا حتى وصلنا إلى وادي النخيل، ثم اتجهنا لحديقة الشيخ أحمد."

سكتت قليلا ثم أضافت بصوت متقطع، "وعندما وصلنا، وجدنا شعلة صغيرة تنير في تلك الظلمة، يجلس بالقرب منها رجل كبير الحجم، وعندما رآنا، نهض مسرعًا نحو الشيخ أحمد، وسأله قائلاً، 'سيدي، ماذا جرى؟ هل مازال رجال الأمير يبحثون عني؟' رد عليه السيد أحمد بحزن، 'للأسف، رجال الأمير عرفوا من تكون، ولديهم شاهد يعرفك من وجهك.'

سقط الرجل على ركبتيه ومد يديه لأحمد يتوسل إليه لينقذه. بعدها سار صديقك السيد شيخنه حتى أصبح خلف الرجل، وقال، 'لا تقلق، أنا وأبي سنحرص على أن لا يمسكوا بك." رد الرجل المسكين بفرح، "هل أنت جاد، وكيف ذلك؟' ".

أجهشت الخادمة بالبكاء مجددا، فقال لها العربي بحزم، "تحدثي، ماذا جرى؟"

قالت بكلام نصفه بكاء "الرجل لم يكمل كلامه حتى وضع السيد شيخنه سكينا على رقبته، وشق حلقه بكل قسوة أمامنا، فتطايرت دمه في كل مكان، وسقط يتقلب في دمه، ويشخر حتى مات،

ونحن نراقب كل ما حدث. كنت سـأموت من الخوف، فما حدث كان مخيفًا ومروعًا. أنا آسـفة، يا سيدي، لم أستطع تمالك نفسي، فلم أرَ شخصًا يُقتَل من قبل."

ابتسـم العربي وقال في نفسـه، مسـتغربًا من قسـوة شـيخنه: "يا لك من شـخص عنيف وقاسـي القلب، يا شـيخنه." ثم نظر للفتاة وهي تبكي، وقال بنبرة جادة: "اسـمعي، يا زينه، كل ما رأيته الليلـة، ومـا جرى بيني وبينك من حديث، لن يعلم به أي أحد، انســـي الموضـــوع، هل كلامي مفهوم؟"

لم ترد الفتاة، بل حدقت إليه بخوف. شعر العربي بالضيق من صمتها، فأمسكها من فكها ودفعها بقوة على الأرض، وجلس فوقها وهو قابض على فمها بقوة، ثم قال وهو يضــغط على وجهها: "لن يعلم أحد بمـا فعلنـاه، مفهوم؟ ســـتعودين لخدمـة أمي وحياتك القديمة، كما لو أنه لم يحدث شيء."

هزت رأسـها موافقة على ما قال، وهي تشـعر بالذعر من نظراته الشـريرة. تركها العربي وهو يبتسم، وقال: "أحسنتِ، أنتِ مطيعة، يا زينه."

"جلسـت الفتاة، وأنفاسـها تتعالى من الخوف، تعيش نفس الجحيم مرة أخرى، فقد انتهك العربي أنوثتها وعذّبها بلا رحمـة فيما مضـــى، وكذلك يفعل مع كل الجواري، وحتى أنه يتعدى على بنات فخظ سيدحمد الذين ليس لأهلهم القدرة على مجابهته. لا أحد يستطيع منعه من الفساد الذي يقوم به بسبب قوته واعتماده على سلطة أبيه.

*****

(19)

في ضيافة البطل. سالم

بعد أداء صلاة الفجر، وهدوء الصباح الباكر يتسلل إلى خيمة سالم، الذي ارتدى ثوبه وأمسك بحباله، وانطلق باتجاه الحظيرة حيث تنتظره إبله لحلبها والاستعداد للرحيل لرعيها.

في رحلته المعتادة نحو الإبل، وأثناء إيقاع خطواته في تراب الصحراء، انعكست بوادر الصداقة والتعاون في صوت زيد الذي ناداه، فتوقف سالم ليراه يركض نحوه ويطلب منه الانتظار، وبسرعة انضم إليه ليتوجها سويًا إلى مرعى الإبل.

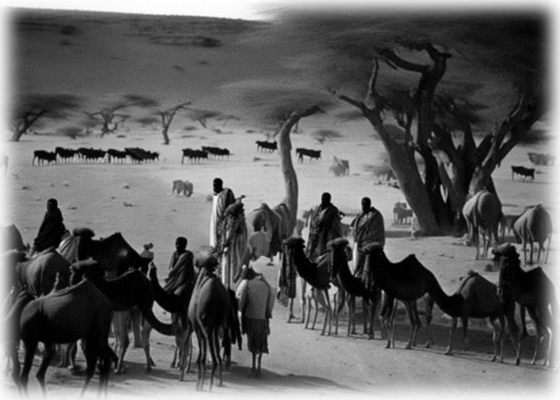

بينما كانوا يقومون بمهامهم مع الإبل وتدبير احتياجاتها، شارك زيد سالم في حلب الإبل وحمل اللبن، ثم عادوا معًا إلى المخيم وسط أجواء هادئة ومريحة تملأها ضحكات الصديقين.

وعند وصولهما، كانت زينب، زوجة الشيخ الشيباني، في استقبالهم بابتسامة دافئة، مما أدخل البهجة إلى قلبيهما.

"السلام عليكم، سيدتي زينب." حيا سالم بود واحترام وهو يمد يده بحوض اللبن نحوها.

"وعليكم السلام، سالم،" ردت زينب بابتسامة دافئة وهي تأخذ الحوض. "أصلح الله بيدك، يا ولدي. لقد حلبتم الإبل بشكل جيد اليوم."

ضحك سالم بخفة وقال، "شكرًا لك، سيدتي. إنها ثمرة جهدنا في رعاية الإبل. والنبات هنا يبدو أنه يغذيها بشكل جيد، فقد أكلت كثيرًا في الأمس."

قالت زينب بابتسامة تعبر عن امتنانها، وهي تصب اللبن في إناء صغير "أحسنت العمل، يا سالم. ما زلت ترعى الإبل بشكل أفضل من البقية." وأشارت له بود، "هيا، اجلس هنا."

ثم صبت له قدحًا من الحليب وناولته له بلطف "اشرب".

جلس سالم وتناول القدح منها، ثم شربه كله بشهية وأخذ لحظة ليحمد الله على هذه النعمة.

عندها سأل زيد بغيرة، "سيدتي، وماذا عني؟ ألن أحصل على الحليب؟"

أجابت زينب بحنان، "لا، الحليب الذي جلبته غير نظيف، لن أصب لك حتى تتعلم كيف تحلب دون أن توسخ اللبن."

ضحك سالم بشدة على زيد، وقال، "ألم أقل لك أتقن عملك؟"

جلس زيد كشر وذقنه على كف يده، وقال، "لكن أنا لست بارعًا مثلك، يا سالم."

قالت زينب بحزم، وهي تصب المزيد من اللبن"حسنًا، اليوم عندك عذر، لكن مرة أخرى لن تحصل على الحليب."

شرب زيد الحليب بامتنان وتقدير وهو يشعر باستمتاع. زيد وسالم كانا على وشك المغادرة، ولكن قاطعتهما زينب بسؤالها المفاجئ، "إلى أين يا سالم؟"

سالم أجاب بحماس، "سأذهب لأخذ الإبل مع الرعاة نحو المرعى."

رفضت زينب بحزم، "لا، أنت لست ذاهبًا اليوم."

أوضحت زينب برقي، "اليوم هو الأخير قبل نهائي المسابقة، وأنت الكمداني الوحيد الذي بقي في البطولة، لذا عليك أن ترتاح اليوم وتأكل جيدًا. ولن ترعى الإبل، بل ستبقى هنا لتسترخي في خيمتي."

تأثر سالم بهذا اللفت الكريم وكان غافلاً عن تفاصيل المسابقة. وقال ممتنًا، "هذا من كرمك، سيدتي. أشكرك."

بادر زيد بالسؤال، "وماذا عني؟ هل يمكنني أن أبقى هنا أيضًا، يا سيدتي؟"

ابتسمت زينب وأجابت بلطف، "بالطبع، إذا أراد سالم ذلك."

فرح سالم وزيد بهذا القرار واعتنقا بمرح، ثم قال سالم مبتسمًا، "سيسرني ذلك، سيدتي."

وهكذا جلس سالم في خيمة زينب مع زيد، يتبادلان الحديث والضحكات. وقدمت زينب لهم التمر والزبدة والشراب، حتى مرت الساعة.

ثم نادت زينب زيد لكي يذبح لها خروفًا، فذهب ليقوم بالمهمة، وبقي سالم وحده في الخيمة. استلقى على ظهره وغطى وجهه بيده، وانغمس في نوم عميق تحت رحاب خيمة الصحراء المهدئة.

*

نام سالم بسلام منذ الصباح حتى أضحى النهار، وعندما فتح عينيه، وجد نفسه وسط أصوات الأطفال الذين كانوا يتحدون بجانبه. "أوه، أنظروا، استيقظ!"، قال أحدهم.

رد آخر بدهشة، "لا يمكن، هو فعلا استيقظ!".

قال ثالث بهدوء، "دعوه يرتاح، ربما كان يحتاج لهذا النوم لشحذ قدراته".

ضحك سالم بعدما عرف أنهم إخوته الصغار، فسألهم بفضول، "عن ماذا تتحدثون؟"

فأجابه عمر، "نحن من أكبر المعجبين بك".

"حقا؟"، قال سالم بابتسامة، "ولكن ماذا فعلت لأرضي إعجابكم؟".

أشارت مريم وقالت، "هل نسيت تلك الأفعال البطولية في المسابقة؟".

أدرك سالم ما كانوا يقصدونه، فشكرهم قائلاً، "شكراً يا أصدقاء، إنه أمر عادي".

"ووه!" رد الحسن بانبهار "ألم أقل لكم إنه عظيم؟ إنه ليس متكبراً، هذه هي صفات البطل تمامًا، كما قالت أمي".

ضحك سالم بخفة على قوله وأجاب، "يا حسن، هذه ليست بطولة".

"لكن مهارتك في رمي الحجارة مستحيل أن يفعلها أي أحد!"، أعقب عمر بإعجاب، "كل تلك الدقة في التصويب والسرعة، وتساقط الثمر كما لو أنه قطرات مطر! واه، لا أستطيع التصديق".

تذكر سالم إنجازاته في المسابقة، وتأكد أنه ليس بالأمر السهل على الآخرين تقليده، فقال بابتسامة، "معكم حق، أنا بارع في الرماية".

"تجيد استخدام البندقية يا سالم"، لاحظت مريم.

"لا، لم أجربها يومًا"، أجاب سالم بلطف.

"هل يمكنك يا ســالم أن تعلمني كيف أرمي مثلك؟"، طلب الحســن بحماس، وانضــمت مريم الصغيرة بنفس الطلب.

ضـحك سـالم وأجاب بثقة، "بالطبع، سـأفعل ذلك يا رفاق، لكن سـيتطلب الأمر منكم الكثير من الوقت حتى تصبحوا بارعين".

في هذا الوقت، دخل أخوهم الكبير محمد الخيمة عليهم، وقال بابتســامة، "وأنا أيضًــا أريد أن تعلمني مهارتك يا سالم".

نظر سالم للخلف ووقف بسرعة، ثم قال بود، "أهلاً بك سيدي محمد".

رد محمد بسعادة، "أهلاً بك، كيف حالك اليوم؟".

كان سـالم على وشك الرد عندما قاطعه صوت صراخ مريم الصغيرة وهي تجري نحو محمد، الذي فرح بها وحملها ثم احتضنها قائلاً، "أوه، يال جمالك يا أختي الحبيبة، افتقدتك".

ردت مريم بابتسامة، "أنا افتقدتك أيضًا يا أخي الكبير"

أجاب محمد بود وقال، "ماذا تفعلين هنا مع هذين المشاغبين؟".

أجابت مريم، وهي تلعب بضفائرها "نحن هنا لنرى البطل سالم".

ضحك سالم محرجًا على قولها، ثم تدخل عمر قائلاً، "أخي محمد، كيف تقيم مهارات سالم؟ هل سيفوز على العفريت عبد الفتاح؟"

ضحك كل من محمد وسالم، وقال محمد بثقة، "إن سالم يتمتع بقوة ومهارات فريدة، أنا متأكد أنه سيفوز إن شاء الله ويُرفع رأس فخظ الكمداني".

ابتسم سالم مستمتعًا بتأييد أخيه له، وقال، "أتمنى أن أكون عند حسن ظنك، سيدي".

ابتسم محمد وسأل، "أين أمي؟". أجاب عمر، "إنها عند المذبح، هي وزيد، رأيناها قبل ساعة".

جلس سالم ومحمد والأطفال في الخيمة، يتحدون ويتناقشون حول أمر المسابقة. وبعد ساعة، حضر الشيخ الشيباني وابنه عبدو، وألغى التحية. رد الجميع بتحية السلام.

نظر الشيباني إلى داخل الخيمة فوجد سالم معهم، فقال بود، "كيف الحال يا أولاد؟ أين أمكم؟"

رد محمد، "إنها مشغولة في إعداد وليمة لضيفها".

أثارت كلمة ضيفها فضول الشيباني، الذي سأل، "ومن ضيفها؟" أجابت مريم الصغيرة بثقة، "ألا ترى يا أبي، إنه سالم بطل الكمداني". أطرق سالم رأسه محرجًا من كلامها مجددًا.

أثنى الشيباني، قائلاً، "خير ما فعلت، سالم يستحق الإكرام، فقد رفع رأسنا في البطولة". رد عبدو بتكبر، "إنه أمر سهل، لو شاركت لفزت بالمراكز الأولى في كل الجولات".

ضحك محمد، وقال، "أنت تفوز؟ لقد تهربت من المشاركة عندما علمت بمشاركة عبد الفتاح، لقد خفت اعترف"

ضحك الجميع على سخرية محمد من عبدو. فقال لهم بنفاذ صبر، "أعترف، ذلك الرجل جبار، إنه من ذرية قوم عاد". ضحك الجميع على وصفه. ثم قال الشيباني، "حسناً يا عبدو، توقف، لا تذكر الغائب بسوء".

رد عبدو ببساطة، "حاضر".

نهض محمد وأحضر فراشًا لوالده، ثم جلس عليه الشيباني وتجمع كل الأولاد حوله.

بقي ســـالم جالسًـــا في الزاوية وحده، ينظر إلى العائلة التي تمنى دومًا أن يكون منها، وطأطأ رأسه وشرد قليلاً في أفكاره الحزينة، حتى قاطعه صوت الشيباني الذي كان متكئًا على مرفقه ينظر إليه باهتمام: "سالم، تعال اقترب وأدخل بين إخوتك، لا تجلس بمفردك".

زحف سالم إليهم وجلس بين مريم والحسن. سأل محمد، "أبي، كيف ستكون الجولة الأخيرة من البطولة؟" أجاب الشـــيباني، "لا أدري حقًا، لكنها لن تكون ســـهلة كالعادة، فغالبًا تعتمد على الشجاعة والإصرار قبل القوة والمهارة. آخر مسابقة كانت الجولة الأخيرة هي أن يمر المتنافس سالمًا من وادي لحنوك".

قالت مريم الصغيرة بتسرع، "أبي، أبي، ما هو وادي لحنوك؟" رد الشيباني، "يا صغيرتي، إنه وادي يبعد عدة أميال من هنا، وتسكنه زمرة قديمة من النمور".

ابتلع ســـالم ريقه وهو يســـمع كلام والده. ســـأل عمر، "كيف مر عبد الفتاح عبر الوادي وفاز؟ وماذا حدث لبقية منافسيه؟"

رد الشـيباني، "لقد كان محظوظًا، لقد كان معه منافس واحد، وهو صـديقي بدري، ولم يكن في الودي سوى نمر صغير السن لم يكن قويًا كفاية، فقتله بدري، في حين استقل عبد الفتاح إنشقال بدري وهرب، ووصل قبله".

قال عبدو، "هه، إنه مجرد جبان كما توقعت".

ضحك محمد وقال، "لكنه شارك مجددًا ليثبت عكس ذلك".

رد عبدو بسخرية "بالتأكيد، سيرمي بسالم أو العربي لتلك النمور حتى يتسنى له الهرب".

ضحك الجميع بشدة، بمن فيهم سالم الذي أخفى ارتعابه من الفكرة بالابتسامة. وقالت مريم الصغيرة وهي تنظر لسالم، "أنا خائفة على سالم، لا أريده أن يتأذى".

نظر الجميع لسالم، وقد أصابهم نفس خوفها عليه. كان سالم مرتعبًا أيضًا من الفكرة.

قال الشيباني بثقة، وهو يغمض عينيه ويبتسم "سيكون قادراً على النجاة، فهو كمداني أصيل. والكمداني لا يهاب الصعاب والمحن".

اقشعرت جلود أبنائه، بالأخص سالم، الذي كان سعيداً بوصف والده له بالأصيل، وقال في نفسه، "سأثبت أنني كمداني أصيل النسب، خرجت من قيد العبودية ونلت حريتي".

مضت لحظات أخرى في جلسة الإخوة بحضرة أبيهم، حيث كانوا يتبادلون الحديث. وفي هذا الوقت. عادت السيدة زينب وزيد بصحبة زوجة الشيخ الأخرى، منى. وكانوا يحملون طبقًا معدنيًا كبيرًا، يضم الخروف المشوي والمحشي، حيث يتميز بقشرته الذهبية المقرمشة التي تحتضن لحمًا طريًا يميل إلى الذوبان في الفم، مع انبعاث عبير البهارات المغري والأعشاب العطرية. تحكي النكهات قصة حكايات الطهي التقليدية، حيث تختلط نكهات التوابل بالملح والفلفل لتكوّن تجربة مثيرة للحواس. وعند قطع اللحم، تظهر حشوة غنية بالنكهات، تضفي توازنًا مثاليًا لهذا الطبق الشهي.

صاح الأطفال مذهولين من جمال وشهية طبخة السيدة زينب، الذي أثار أعمق شهوات الطعام. دخلت ووضعت الطبق أمام الشيخ الشيباني، الذي عدل جلسته وقال وهو ينظر بدهشة لهذا الشواء الشهي والرائحة الطيبة: "بارك الله في يدك يا زينب، ما زلت تطبخين وتزيدين في حبنا لطعم طبخك."

ابتسمت زينب وقالت بامتنان، "شكرًا لك يا زوجي الحبيب، لكن هذا معد لبطلنا سالم الذي رفع رؤوسنا في البطولة."

ضحكت منى بخفة دم وقالت، "معك حق يا زينب، أحسنت يا سالم، أنت عجيب حقًا، لقد أبهرت عقولنا في ذلك اليوم."

وأضـــاف محمد وهو يبتســـم، "هل تســـمع يا ســـالم كلامهم عنك، نحن أكبر المعجبين الذين يشجعونك في البطولة، لذا فاز من أجلنا أرجوك."

جلس سالم يبتسم دون أن يعرف كيف يرد على مديحهم جميعًا، والشيخ الشيباني يجلس وينظر له وهو يشـــعر بســـعادة ابنه لوجوده مع عائلته أخيرًا. اســـتمروا هكذا للحظات حتى قاطعهم صراخ مريم الصغيرة، فنظر الجميع إليها.

فقالت: "هل سنأكل؟ أنا أريد أكل اللحم."

انطلقت ضـــحكات كل العائلة من قولها، ثم التفوا حول الطبق وبدأوا يأكلون، وســـالم يشـــعر بسعادة غامِرة، وبجواره كل من زيد ومحمد في يلفه حب ودفء العائلة.

*****

(20)

عجوز في جلد صبية

تحت ظلال خيمة السلطة، بتسامٍ متفتحة تلقائيةٍ مريحة، انتهت زهرة من الغداء، وهمست كلمات الشكر توجهها نحو السماء. "الحمد لله، انتهيت."

لكن، بصوتٍ يحمل بعض الغضب المكبوت والتوجيه الصارم، حثت السيدة فاطمة ابنتها على عدم الانتهاء من وجبتها. "عودي وانهي طعامك، يا زهرة."

رفعت زهرة يدها بلطف معبرةً عن عذرها، وبعزيمةٍ لا تلين. "أعتذر، يا أمي، ولكن لا أستطيع تناول المزيد."

لكن، بصوتٍ يعبس بالقلق والتحفظ، خرجت فاطمة بكلماتٍ مليئة بالحنان والرغبة في التغيير. "أسمعي، لست راضية عن نحافتك هذه. يجب أن تزيدي وزنك حتى تصبحي أجمل في نظر زوجك مستقبلاً."

زهرة، ببساطة ويقين، رفضت الضغط الاجتماعي المفروض عليها، وبكلماتٍ تحمل روح الثورة الهادئة، معبرتا عن رغبتها في أن تكون مختلفة، محاولةً فهم وتقبل جمال الاختلاف. "يا أمي الحبيبة، افهميني، أنا لا أتبنى منظور مجتمعنا للجمال. أريد أن أكون بحجم عادي كالنساء المغربيات اللاتي وصفهم لي أخي صلاح، ومدى جمالهن الذي لا يتوقف على حجم الجسم."

لكن، بلحنٍ يمزج بين القلق والحنان، حاولت فاطمة إيصال صوت العقل والواقعية، خوفًا على مستقبل ابنتها. "يا مجنونة، هكذا تحكمين على نفسك بالعزوبية؟ لا أحتاج إلى أن أخبرك، فلن يقبل بك أي رجل هنا وأنت نحيفة، حتى لو كنتِ بنت الأمير."

بادرت زهرة بضحكٍ يحمل بين طياته ثقة لا تلين، طمأنت أمها بمزيد من القلق والتشويش. "لا تقلقي، يا أمي، لن أبقى عازبة."

خرجت زهرة لرؤية أخيها، بينما تسلل الغضب بحجم ضغط القلب في نفس فاطمة، وكلمات القلق ارتسمت على شفتيها، معبّرة عن مخاوفها من مستقبل ابنتها وقد تجاوزت الحدود المعتادة "هذه، هذه الشقية ستفقدني صبري."

*

بسلامٍ يملأ القلوب بالطمأنينة، خرج عبد الفتاح من صلاة العصر، ليواجه زهرة التي توقفت أمامه، متشبثةً بحبال الخيمة، وعلى وجهها ابتسامةٌ تعكس سعادةً لا توصف. "كيف حالك أخي؟" سألت بلطف.

بتبسمٍ يعكس السلام الداخلي، أجاب عبد الفتاح، "أنا على أتم ما يرام." ثم أضاف برقة، متابعًا تفاصيل الزيارة والابتسامة الزائفة التي ترتسم على شفتيها. "تلك الزيارة، وتلك الابتسامة الماكرة، ما القصة؟"

أطلقت زهرة ضحكةً خفيفةً، وهي تفرج أسنانها المتلألئة من خلف شفتيها. "ألا يمكنني أن أزور أخي الحبيب حين أشتاق له؟"

رد عبد الفتاح، بصوت يحمل الدفء والحنان، "يا لك من عجوز ماكرة في جلد صبية جميلة."

لم تستطع مريم، زوجة عبد الفتاح، كبح ضحكتها التي انفجرت في الجو، متأثرة بكلماته. نظر عبد الفتاح إليها بثقة وقال، "والله إنني لا أمزح، زهرة تعرف جيدًا كيف تستقل حبي لها، وأصبحت أعرف كيف تفعل ذلك."

زهرة، بثبات وثقة في كلماتها، أكملت بصوت هادئ وثاقب، "إذًا لا أحتاج أن أوضح أكثر بما أنك فهمت."

رد عبد الفتاح بصوت متأمل ومنطقي، "حسنًا، اجلسي وقولي طلباتك."

تقدمت زهرة بخطوات ثابتة وجلست على يمينه، وفي لحظة من التواطؤ السري، انحنت نحوه لتهمس في أذنه بكلمات قاطعة، فتوسعت حدقتا عبد الفتاح فزعًا عند سماع ذلك، وقال بصوتٍ مليء بالدهشة، "هل أنتِ مجنونة؟ سيصلبني كل من أبي وأمي لو عرفوا أني دبرت لك أمراً كهذا."

ردت زهرة، محاولةً تهدئة الأمور، "أخفض صوتك، أرجوك، أخي، ليس هناك من يستطيع فعلها غيرك."

لكن عبد الفتاح رفض بحزم، "مستحيل، لن أفعل هذا."

عبَّرت زهرة عن استسلامها بعبوس وشبك أصابعها، لكنها لم تتراجع، وبنظرةٍ تحمل الرقة والحب، قالت، "أرجوك، ليس لي غيرك، أخي صلاح شرير لن يساعدني."

دره عبد الفتاح يا مجنونة، مستحيل أن أفعل شيئاً كهذا."

حولت زهرة نظرها نحو الأسفل وتظاهرت بالحزن، فرق قلب عبد الفتاح لرؤية تعبيرها البريء، وبينما زفر بنفاذ صبر، قال بلطف، "حسنًا، اتفقنا."

بهمسٍ ممتلئ بـالامتنـان، قفزت زهرة نحوه وعـانقتـه بقوة، وقالت، "شـــكرًا، شـــكرًا يا حبيب قلبي."

ابتســم عبد الفتاح وضــمها برفق، وفي زاوية الخيمة، نظرت مريم بتذمر، قائلة، "هَهْ، تنفذ لها طلباتها بكل بساطة، وترفض كل طلبات زوجتك."

انفجر الاثنان بالضـــحك من تعليقها، ثم ســـأل عبد الفتاح، "حســـنًا، أيتها العجوز الإنتحارية، والداهية، أخبريني ماذا سنفعل دون أن يغضب ذلك أمي."

ابتسمت زهرة، وأجابت "اسمع!"

*****

(21)

الوعد والوداع

خرج سالم ليتمتع بنسمات هواء المساء النقي في المخيم الكبير، كانت أشعة الشمس تتسلل عبر سماء زرقاء صافية، تميل للحمرة ناحية الغروب، تضيء الأزقة الواسعة المتعرجة. كانت خيوط الضوء تلمع على الخيام البيضاء، التي بدت وكأنها قطع من القماش المتلألئ على أرضية المخيم الترابية.

استمتع سالم بانتعاش النهار، حيث كانت الحرارة المعتدلة تدفئ الأجواء بنعومة، وتملأ المكان بعبق الهواء النقي الممزوج بروائح الطعام الطازج والزهور البرية. كان يتبادل التحيات والابتسامات مع المارة، الذين كانوا يملؤون الأزقة بالحيوية. كانت أصوات الناس تتداخل بشكل متناغم مع ضحكات الأطفال وألعابهم، في حين كانت الطيور تغرد بمرح من فوق.

فجأة، بينما كان يستمتع بهذا الجو الهادئ، بدأ صوت الحصان الذي يسير خلفه يعلو، متجاوزًا همسات النهار. لم يكن الصوت مزعجًا بل كان يتصاعد بشكل تدريجي، مما جعل سالم يلتفت بحذر. وعندما نظر خلفه، اكتشف أن الشيباني كان يركب الحصان بابتسامة مريحة، ليضيف لمسة من المفاجأة إلى هذا المساء المشمس في المخيم.

"لا تخف"، قال الشيباني بابتسامة.

"أبي، أقصد، سيدي!" رد سالم بابتسامة محرجة.

"كيف كان يومك؟" سأل الشيباني وهو يحرك لجام الحصان.

"آه، كان يومًا جميلًا حقًا، كنت سعيدًا بوجودي مع عائلتي"، أجاب سالم وهو يحك رأسه بتوتر.

"يسرني ذلك حقًا"، قال الشيباني وسحب لجام الحصان مشيرا سالم ليسير معه.

"حسنا"، قال سالم وانضم إليه بابتسامة.

فقال الشيباني بابتسامة مطمئنة وهو ينظر لطول الزقاق المزدحم بالناس: "هل أنت مستعد للغد؟"

رد سالم بصراحة: "أشعر بالخوف لكنني مصر على خوض التجربة."

ابتسم الشيباني وقال: "لماذا أنت مصر؟ هل هذا من أجل أن تنال حريتك؟"

أجاب سالم وهو يمسك مرفقه وينظر للأسفل: "نعم."

قال الشيباني وهو يلتفت إلى سالم: "يسرني سماع ذلك. لكن ماذا لو خسرت أمام عبد الفتاح أو العربي أو المتسابق الجديد؟"

نظر سالم بدهشة إلى والده وسأل بفضول: "أي متسابق جديد؟"

أوضح الشيباني: "إنه أخ أمير منطقة الحوض الشرقية، لقد جاء هنا لكي يجد زوجة له. وقد استضافه الأمير وجعله متنافسًا في البطولة كنوع من التقدير."

ظهرت ملامح الحيرة على وجه سالم، ثم قال بثقة: "منافسة عبد الفتاح والبقية ستكون أمرًا صعبًا، لكنني سأفوز إن شاء الله."

قال الشيباني بصوت منخفض: "اعلم يا ولدي أنه حتى لو لم تفز، فأنت لا تحتاج تلك المنافسة لتنال حريتك."

رد سالم ببعض من التكبر: "لا أحتاج تعاطفك. فحتى لو لم أفز، سأجد طريقة لأحرر نفسي."

قال الشيباني بتردد: "أنت كنت حراً منذ يوم مولدك، لم تكن عبداً أبداً."

نظر سالم نحو والده بصدمة، وعيناه تشتعل غضبًا دون أن ينطق بأي كلمة، وهو يحاول فهم قصد والده.

"ماذا تقصد بكلامك" قالها سالم وهو يتوقف عن السير.

أوقف الشيباني جواده عن السير ونظر له ثم قال: "الأمر معقد بعض الشيء."

تجمدت حركة سالم وضل صامتا في مكانه. وكان واضحاً للشيباني وهما يتبادلان النظرات، كل ما يدور في عقل ابنه من سخط ومعاتبة، وشعر أنه يستحقها. عندها قابله سالم بعرض كتفيه، ثم راح ذاهبًا في اتجاه آخر، شعر الشيباني بالإحباط والحزن، ومد يده يحاول إستيقاف ولده، ولكنه لم يفعل ذلك، وراح في حال سبيله هو الآخر.

عندما ترك والده، انطلق سالم بخطى غاضبة، وفي داخله عاصفة من الأفكار تتداعى. كيف يمكن لوالده تركه وهو يعتقد أنه عبد طوال هذه السنين؟ لماذا كتمت أمه هذا السر هي أيضا؟ تصارعت الأفكار في رأسه حتى فقد السيطرة وانهالت منه اللكمات على عمود بجواره حتى جرحت يده، ليخرج صوت حاد من داخل الخيمة، يوقفه في مكانه، "هل جننت؟ ابتعد من هنا!" صاحت عجوز تجلس في الخيمة بصوت حاد على سالم، بينما كان يحاول الهروب من دوامة الأفكار التي تجتاح عقله.

عندها، اعتذر سالم بتوتر ورحل، ويده تقط دما، لكن في لحظة من الصمت، سمع صوتا يناديه باسمه، وبينما نظر ليساره، رأى عبد الفتاح وهو يلوح له بيده، يدعوه للانضمام.

تقدم سالم بخطى سريعة، يغمره الفضول والاستغراب تجاه هذا الدعوة المفاجئة. وبعدما وصل سالم إلى عبد الفتاح، سمع تحية حارة منه تعبر عن الفرح والاستراحة، "سالم، أين كنت؟ بحثت عنك كثيراً."

رد سالم بابتسامة، "كنت في مخيم الكمداني، يا سيدي."

عبد الفتاح، وهو مبتسم، قال، "حسنًا، لا عليك، الآن وجدتك."

استغرب سالم، وقال، وهناك فضول في صوته، "ماذا هناك، سيدي؟"

رد عليه عبد الفتاح، وهو يمسك كتف سالم بلطف "أريدك أن تتنزه معي، أنا وزوجتي وأختي، في الوادي."

قال سالم في نفسه بنفي، "يبدو أن زيارتي لأختي ستتأجل." ثم نظر إلى عبد الفتاح بابتسامة، وقال، "حسنًا، أنا جاهز، يا سيدي."

*

في خيمة الأمير الخاصة، قالت السيدة فاطمة "أخبريني، لماذا ارتديتِ ثوبكِ الجديد وما هذه الزينة ورائحة البخور التي تفوح منك؟" سألت بغضب.

"أمي، بالطبع أريد أن أبدو جميلة." ردت زهرة.

باستفزاز، ردت فاطمة: "أنتِ لستِ جميلة، يا زهرة، بل قبيحة."

"أنا جميلة، بل أنا أجمل فتاة سبق لك رؤيتها، يا أمي." قالت زهرة بثقة.

فزفرت فاطمة بانقضاء صبرها، وفجأة، جاء صوت ولدها عبد الفتاح وهو يسلم، فنظرت وإذا به واقفاً أمام الخيمة برفقته زوجته مريم.

"وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، يا ولدي، أدخل." ردت فاطمة بابتسامة عريضة.

"شكراً يا أمي، لكننا سنذهب، جئنا لنستأذنك في ذهاب زهرة معنا." قال عبد الفتاح.

"إذاً، لهذا السبب تجهز زهرة نفسها، إلى أين أنتم ذاهبون بالضبط؟" ردت فاطمة.

"سنتنزه في الوادي، يا أمي، فقد مللنا من الجلوس في المخيم." قالت مريم وهي تقترب.

"حسناً، يا حبيبتي مريم، أنت المسؤولة، فعبد الفتاح وزهرة لا يزالوا مجرد رضع متهورين، اهتمي بهما جيداً." ردت فاطمة.

ضحكت مريم وكذلك عبد الفتاح على قولها، وأتبعت مريم: "سأبذل جهدي، يا أمي."

تقدمت زهرة وهي في زيها الأسود ووجهها مقطا بالنقاب، ثم احتضنت أمها من الخلف ورفعت قناعها قليلاً وقبلتها في خدها، ثم قالت بلطف، "يا أمي، يا نور عيني، أنا وأخي أصبحنا كبارًا ومسؤولين، لذا لا تشقلي بالك علينا."

ردت فاطمة، "حسنًا يا عزيزتي، إذاً لا تتأخري عني، سأنتظر عودتك يا مجنونة، وأتمنى أن تتأثري بجمال مريم."

انفجر الثلاث ضحكًا من قولها، ومدا إصرارها. ابتسمت فاطمة لهم وقالت، "تصحبكم السلامة."

*

خرج الثلاثة، يسيرن في المخيم حتى وصلوا إلى نهايته، المقابلة لوادي النخيل. هناك، وجدوا سالم يقف بانتظارهم، ولما رآهم، أصابه الارتباك والتوتر، وكأنه لم يكن يتوقع لقاءهم بهذا الوقت.

عبد الفتاح تقدم إلى سالم بتواضع وقال، "لقد تأخرنا، فزوجتي بطيئة قليلاً." مريم كشرت في وجه زوجها وضربته بلطف على ظهره، مما أثار ضحكًا خفيفًا من سالم وزهرة. حين ألقى سالم نظرة على زهرة، شعر ببعض الاعتراف بها، فتساءل قائلًا، "هل هذه أختك، سيدي عبد الفتاح؟"

زهرة أكدت، "نعم، أنا زهرة، وكيف تعرفت علي؟"

سالم ابتسم مغمضًا عينيه بسعادة وقال، "لقد تذكرتك من الشامة الصغيرة على سبابة يدك اليسرى."

دهشت زهرة وأخوها وزوجته من ذكاء سالم، فقد كانت الشامة صغيرة جدًا. فجأة، اعتلى غضب عبد الفتاح قليلاً، فأمسك بكتف سالم بقوة، وضغط عليه بقوة، فسقط سالم على ركبتيه.

بعدها، قال بغضب، "هل كنت تحدق بأختي، طوال الوقت؟"، صاح عبد الفتاح بغضب متزايد، "حتى تمكنت من تذكر هذه الشامة الصغيرة في يدها؟"، وأضاف بصوت مليء بالاستياء، "يا عديم الأخلاق."

تألم سالم كثيرا، وأجاب وهو يغلق عينيه بالألم، "أعتذر، سيدي، لم أقصد النظر، لقد جذبت انتباهي قليلا آخر مرة زارتني السيدة."

تدخلت زهرة ودفعت عبد الفتاح قليلاً، ثم أمسكت بيد سالم وقالت بلطف، "أخي، لا تزعجه، هو لم يحدق بي، حتى أنه لم ينظر إلى وجهي عندما جئت لزيارته، فلماذا كل هذا الغضب؟"

شـعر عبد الفتاح بالحرج قليلاً من تسـرعه، ثم قال بتواضـع، "أعتذر يا سـالم." ثم مد له يده ليساعده على النهوض.

وقف سالم ورد، "لا مشكلة، سيدي، أتفهم اهتمامك بأختك."

نظرت زهرة لسالم برحابة، ثم قالت بلطف، "هل أنت بخير، يا سالم؟"

رد سالم والألم في صوته، "أنا بخير، سيدتي."

شـعرت زهرة بالألم يختبئ في عيني سـالم، ورأت الدموع تتلمع فيهما. عندها قالت بلطف، "حسنًا، لنذهب، أريد أن أحدثك."

دقات قلب سالم تسارعت، وهو يتساءل في داخله عن سبب رغبة بنت الأمير في الحديث معه. بصوت متماسك، رد، "حسنًا، سيدتي."

*

المسـيرُ رويدًا رويدًا، والرباعي يخطون على الأقدام في الطريق الرملي المتجه نحو الوادي الشـرقي. وفي خضـم الطريق، تفاوتت نكات زهرة المرحة، حيث اندلعت ضحكاتهم بشدة، وصلت لدرجة أن عبد الفتاح وقع مرتين من شـدة الضحك، وعجز عن الوقوف.

وبين الحين والآخر، تبادل كل من مريم وعبد الفتاح مناوشات ومزاح، مما أضفى على الأجواء طابعًا مميزًا، حيث استمتع سالم

وزهرة بمشاهدة هذه اللحظات الطريفة. ووصولاً إلى الساحة الرملية، جلسوا في مركزها، حيث اقترحت زهرة فكرة لعبة جديدة، تقصد ظامة، تحمل في طياتها تحديًا ينتظر من يقبله.

مريم، بعد التحدي من زهرة، اتخذت القرار بالمشاركة في التحدي. سارع سالم وعبد الفتاح لإحضار العيدان والكرات الحجرية الصغيرة، بينما خطت زهرة الشكل على سطح الرمل. انطلقت المباراة بين الصديقتين، لكنها لم تدم سوى لحظات قليلة حتى تغلبت زهرة بطريقة لا يمكن إنكارها على مريم، التي صرخت بدهشة وعجب. بابتسامة، قالت زهرة وهي تنحني للأمام: "التالي".

فتبسم سالم على هذه الجرأة، بينما جلس عبد الفتاح وقال لزهرة بنبرة مزاحية: "ساذجة، لن تهزميني مثلما فعلتي بها".

ردت زهرة بثقة وهي ترتب جيشها: "إذا أرني ماذا ستفعل عضلات مخك الضعيفة يا أخي".

انطلقت ضحكات سالم ومريم على هذه الكلمات، بينما ضحك عبد الفتاح قبل أن يلتحق باللعبة، لكنه انهزم بسرعة هو أيضًا.

زهرة، بعد الانتصار على عبد الفتاح، ألقت بتحدي جديد قائلة: "التالي".

نظر الزوجان إلى سالم، وعندها أشار سالم إلى نفسه وقال: "أنا، لكنني لا أجيد اللعب بشكل جيد".

بصوت عذب ولطيف، قالت زهرة مبتسمة: "اجلس هنا أمامي وجرب فقط".

شعر سالم بالتوتر قليلاً، لكنه تقدم وجلس، ورتب جيشه وبدأ في تحريك أحجاره بمهارة، بينما حركت زهرة عيدانها بمهارة متناهية.

وفي ضـربة واحدة، قتلت زهرة سـتة أحجار لسـالم، فأمسـك رأسـه متحيرًا. فقالت له ببراعة: "بقي لك اثنان".

بعد تفكير قليل، حرك سـالم أحد أحجاره بحركة شـديدة الدقة، فتلته زهرة بحركتها. ابتسـم سالم، وبحركة متقنة، سحق كل عيدان زهرة، فنجح في هزيمتها.

سـاد الصـمت للحظة، وكانت أعين مريم وزوجها تحدق في سـالم بدهشـة، مفتوحة أفواههما، مذهولين من جمال حركته. بابتسامة، قالت زهرة: "مبروك، لقد فزت".

بينما كان سـالم مرتبكًا ويقول: "فعلاً، كيف فعلت ذلك؟ لم أفز من قبل!" زهرة بضـحك، قالت: "مع من كنت تلعب؟" فأجاب سـالم: "تعلمت من أختي كريمة، لم ألعب مع غيرها من قبل، إنها لا تقهر".

كانت زهرة تتحدث في نفسـها: "لا عجب أنك فزت، لقد صـبرت وتعلمت الكثير من تجارب الخسـارة المتواصـلة ضـد محترف دون أن تفوز، يا لك من مثابر. وتلك الفتاة الصـغيرة ليست قليلة أبدًا". ثم قالت لسالم: "لا بد أنها بارعة للغاية".

رد سالم بضحك: "ربما أنا محظوظ فقط". قال عبد الفتاح بإعجاب: "أنت موهوب بحق، زهرة لم تهزم من قبل، لقد تغلبت على كل المحترفين هنا!"

رد عليه سالم: "ربما حالفني الحظ".

عندها قالت مريم وهي تتقدم: "حسنًا، إنه دوري للعب، تنحي يا زهرة، سأهزمه نيابة عنك".

تبارى الاثنان وهزمت مريم بسـرعة، ثم جاء عبد الفتاح وهزم أيضـًا، ومن ثم جاء دور زهرة وهزمت مجددًا. وظل سـالم يهزمهم حتى دارت عليهم ثلاث مرات، فأصـبحوا مترددين بالمحاولة معه.

في خضم الصمت، قالت زهرة في نفسها: "بهذا المستوى من البراعة ولم يفز على أحد من قبل، إذا كيف سيكون مستوى تلك الطفلة!"

اقترحت مريم: "فلنذهب ونشرب، لقد عطشت الجو حارًا، وأنا تعبت من الهزيمة". ضحكوا على كلماتها، ثم قام عبد الفتاح برفقتها وتوجها نحو بئر تبعد بضع خطوات.

في حين بقي سالم وزهرة وحدهما، في مقابل بعضهما. شعر سالم ببعض التوتر وهو يواجه هذا الموقف. ثم شبك أصابعه ونظر نحو الأسفل، بينما غرقت زهرة في التحديق بسالم، فلم يسبق لها أن رأت شابًا بقدر جمال وحسن سالم، وكذلك مدى براعة وغرابة أمره. فهو لا يبدو لها كعبد من بقية العبيد، بل لديه شيء يميزه، سر عظيم كامن خلف شخصيته، وهي تجهل ذلك السر.

وبينما كانت زهرة شاردة في أفكارها، قاطعها صوت حمحمة سالم، الذي كان يتمنى لو يتجافى نظراتها التي تثير نبض قلبه بسرعة من تأثيرها. فجأة واتته نفسه الشجاعة، فقال سالم بتوجس: "سيدتي".

انتبهت زهرة له وقالت: "ماذا؟"

فأجابها عينه نحو الأسفل: "هلا توقفت عن التحديق بي من فضلك".

عبّرت زهرة عن اعتذارها: "آه، آسفة، لقد تهت في خيالي، اعذرني".

حولت نظرها نحو أخيها وزوجته، وهما يلعبان بالماء ويستمتعان برش بعضهما، فابتسمت من منظرهما الطفولي.

قال سالم: "سيدتي، هل تعرفين ما هو تحدي الجولة الأخيرة غدًا؟"

شعرت زهرة بالخوف وقالت: "لا أدري حقًا، لكنها لن تكون سهلة، لهذا أنا أخاف قليلاً".

رد سالم بحزم: "أنا أيضًا خائف".

أوضحت زهرة: "لكنك لست مجبرًا، يمكنك أن تنسحب قبل أن تبدأ".

رد سالم وهو يشد قبضته: "لا، لن أنسحب أبدًا، سأثبت أنني لست عبدًا".

استغربت زهرة من كلامه، فقالت: "لم أفهم، ألست عبدًا حتى تثبت عكس ذلك؟"

انتبه سالم إلى ردها، وأنه قد لمح دون قصد أنه ليس عبدًا، ثم قال بضحك: "لا، بالطبع، أنا عبد، قصدي أنني أريد أن أنال حريتي".

نظرت زهرة إليه بصمت لبرهة، ثم قالت بتساؤل: "من أنت؟"

رد سالم وهو يشعر بالخوف: "أنا أسمي سالم، ابن رحمه، عبد كمداني".

قالت زهرة بفضول: "لم تنسب نفسك لأمك وليس لوالدك؟"

تبدلت ملامح سالم من الضحك إلى الحزن، وقال: "لقد ولدت من غير أب، لذا كانوا يدعونني سالم ابن رحمه".

زهرة قالت بحزن: "لكن، ألم تخبرك المرحومة باسم والدك؟"

صمت سالم قليلاً، متذكراً والده الشيباني، ثم قال: "لا، هي لم تخبرني".

شعرت زهرة أنه يخفي عنها أمراً مهما، لكنها قررت أن تتوقف عن طرح الأسئلة عليه، فقد رأت حزناً عظيماً في وجهه إثر أسئلتها.

عندها حاولت زهرة تغيير الموضوع بقولها: "يا سالم، أنا أومن بقدرتك على الفوز، سأشجعك فأنت بطلي المفضل بين المتنافسين".

رفع سالم عينيه فتقابلت نظراتهما، وقد اشتعل الحماس في داخله إثر كلماتها، فقال: "أعدك أن أبذل أفضل ما عندي وأكون كما تؤمنين بي سيدتي".

قالت زهرة وهي تبتسم خلف نقابها: "حسنًا، سيكون الله في عونك".

رد سالم بتوتر: "أشكرك سيدتي، لولا تشجيعك في الجولة الثالثة لما تعديتها".

قالت زهرة بابتسام: "لو كنت مكاني، لفعلت نفس الشيء. أنت المتنافس الذي نال حب الجماهير منذ الجولة الأولى، كما أنك أذهلتني بعدما شجعتك. أنت حقًا تستحق التشجيع، تصويبك بالحجارة في غاية الاتقان والدقة، ما شاء الله."

ابتسم سالم بتواضع وقال: "إنه أمر عادي، تعلمت الرماية حتى أتمكن من صيد الأرانب والطيور."

قالت زهرة وهي تضع يدها على فمها: "مستحيل، هل فعلتها؟"

رد سالم بضحك مغمض العينين: "نعم، فعلت، كثيرًا."

قالت زهرة بتسرع: "أريدك أن تفعل ذلك أمامي الآن."

ضحك سالم وقال: "حسنًا."

ثم التقط الأحجار التي كان يلعب بها، ونهض ونظر لمحيطه حتى يرى طيرًا ليطيح به، ولكن قاطعه صوت زهرة وهي تقول: "سالم، توقف، لا أريد أن تؤذي الطيور."

التفت إليها وضحك من قولها: "إنه أمر عادي."

ردت وهي تحرك أحد عيدان اللعب بأناملها: "لا، لا أحب ذلك."

أخفض سالم ذراعه وقال: "كما تحبين، سيدتي."

عندها نهضت زهرة بكل حماس وصاحت بصوت ملأته الدهشة والبهجة على عبد الفتاح، "أخي!" نظر عبد الفتاح إليها بعيون مليئة بالتعجب، ورأى أنها تقف وسالم يقف بجوارها، فسمعها تطلب منه بحماس، "فلترمي قطعاً من الطوب الذي بجانب البئر!"

بسرعة مدهشة، التقط عبد الفتاح ثلاثة طوبات من الطين اليابس بجوار البئر، ثم ألقاها عالياً في الهواء. وبينما كان ينظر لها وهي ترقص في السماء، بدأت الطوبات تتناثر فجأة كما لو أنها دخان يرقص في الجو قبل أن يلمس الأرض. صوت انشطار الهواء أثناء اصطدام الأحجار كان يدوي كصدى الانتصار، يملأ المكان بالحماس والدهشة، جعل قلبي عبد الفتاح وزوجته يرقصان من الانبهار.

حينها، تفوهت زهرة بصيحة فرح، وهي تشاهد العرض الرائع، أعاد عبد الفتاح نظره بسرعة، ورأى زهرة تتألق بالبهجة والسعادة، مما جعله يغمره الفخر والاعتزاز بشقيقته. قالت مريم بعدم تصديق، "سالم، هل أنت الذي ضربت الطوبات؟" ابتسم سالم بفخر وثبات وأجاب بتواضع، "نعم، بالطبع."

في هذا الوقت، قالت مريم بصوت مليء بالدهشة والإعجاب، "هذا الشاب ليس مثل أي عبد، إنه غريب بحق، يتمتع بمهارة وإبداع لا مثيل لهما!" رد عليها عبد الفتاح، وهو يتأمل ما قدمه سالم بإعجاب كبير، "أنا معكِ في ذلك، فقلبي يحن له، وأحيانًا أشعر أنه ليس مجرد عبد!"

*

مع اقتراب الشـــمس من الأفق، تلونت الســـماء بألوان الغروب الدافئة، حيث امتزجت ألوان البرتقـالي والوردي والأرجواني في لوحـة طبيعيـة ســـاحرة، غلفت المخيم بجو من الهـدوء والرومانســية. وقف ســالم في مكانه، محاطًا بهذا الجمال الطبيعي، لكنه كان مذهولًا ليس فقط من المنظر أمامه، بل من الجمال البشري الذي تلمحه عيناه.

زهرة، التي بدت كـأنهـا جزء من هذا المشـــهد البديع، وقفت بخفـة أمـامـه وألقت نظرة هادئة تجاهه. حين رفعت النقاب عن وجهها، كشفت عن جمال نادر، فتألقت عيناها بريقٍ لم يره سالم من قبل. بنعومة همست: "سالم، ارفع عينيك." كلماتها كانت أشبه بنسمة لطيفة هبت على قلبه، مما جعله يرفع رأسه ببطء، ليجد نفسه أمام سحر لم يتوقعه.

كان وجهها مضـــيئًا، مثل القمر في ليلة صـــافية، وكل تفاصـــيلها كانت تشـــع رقة وجاذبية. ابتســامتها كانت كافية لتذيب أي قلق وتحل محلها طمأنينة دافئة. شــعر ســالم بنبضــات قلبه تتسارع، ووجنتاه توردتا خجلاً، فقد أشعلت زهرة نار الشغف في أعماقه.

بصوتها العذب الذي كان ينساب كالموسيقى في أذنه، قالت له: "سالم، عدني أن تفوز على أخي غدًا، إن شـــاء الله." كان في كلماتها تحدٍ لطيف، مع نفحة من الثقة، وكأنها تعرف قدرة ســـالم تمامًا.

رد سالم بحماس، يحاول أن يخفي ارتباكه: "بالتأكيد، سأفوز، سيدة زهراء."

ضـحكت بهدوء وردت: "اسمع يا سـالم، الآن نحن أصـدقاء، ادعني زهراء، وتوقف عن قول 'سيدتي'، هل فهمت؟"

بـابتســـامـة خجولـة، أخفض ســـالم عينيـه وقال: "كما ترغبين، زهراء." كانت كلماته محاولة للتعبير عن احترامه وإعجابه في آن واحد.

ثم، في لحظة ســحرية أخرى، أخرجت زهرة قميصـــا أبيض اللون من قماش فاخر ومدته له. ارتسمت الدهشة على وجه سالم، فسأل بصوتٍ مرتبك: "ما هذا؟"

أجابت زهرة بابتسامة خفيفة: "إنه هدية مني لك، تقبلها من فضلك." كانت هديتها بمثابة رمز للعلاقة الناشئة بينهما، ودليل على الثقة المتبادلة.

تناول سالم القميص بحذر وقال بامتنان: "شكرًا لك." كان يعرف أن هذه اللحظة ستبقى محفورة في قلبه إلى الأبد، ثم نظر إليها وهو يراها ترحل مع أخيها، وهي تترك خلفها عبيرًا من الأمل والحنين.

سار سالم بخطى ثابتة نحو المسجد المخيم، متوجهاً لأداء صلاة المغرب. ومع أن السماء قد بدأت تتلون بألوان الغروب الذهبية، يتخللها بعض النجوم إلا أن ذهنه كان بعيداً عن هذا الجمال الرباني. فقد وجد نفسه غارقاً في أفكاره، عاجزاً عن التركيز في صلاته. كانت زهرة، بنت الأمير، تسيطر على تفكيره بالكامل. ذكرياته معها تتراقص في مخيلته، وكلماتها وابتسامتها تتردد في عقله كأنها لحن لا ينتهي. شعر بالوحدة والشوق يغمران قلبه، مما زاد من صعوبة التركيز في الصلاة.

بعد انتهاء الصلاة، قرر سالم أن يزور أخته كريمة، على أمل أن يجد في حديثه معها ما يخفف عنه بعضًا من التشتت الذي يعيشه. وهو يسير بخطى متثاقلة بين الأزقة المزدحمة بالمخيم الكبير، بدأ ذهنه في رسم سيناريوهات مختلفة لمستقبله. "ماذا لو فزت غداً وتحررت؟ ماذا لو أصبحت تاجرًا مرموقًا؟ كيف ستكون علاقتي بالسيدة زهرة؟" لكنه سرعان ما استعاد وعيه ووبخ نفسه قائلاً، "لا، هذا مستحيل. زهرة هي بنت الأمير، كيف ستنظر إلى شخص مثلي؟" ثم عاد ليجادل نفسه من جديد، "لكنني لست مجرد شخص عادي، أنا ابن الشيخ الشيباني، هذا بالتأكيد يجعلني أهلًا لها."

ظل سالم يتأرجح بين هذه الأفكار، منشغلًا عن العالم من حوله، حتى قاطعه حجر صغير أصاب رأسه. رفع عينيه ليرى من فعل ذلك، فرأى كريمة واقفة أمام خيمتها، تنادي عليه بمرح: "هيه أنت، يا سيد شارد! لقد تجاوزت الخيمة، في ماذا تفكر؟ عد إلى هنا فوراً."

ضحك سالم بخفة، ونظر حوله ليتأكد من أنه فعلاً تعدى خيمة الطبيبة عيشه بعدة خطوات. بابتسامة اعتذار قال: "آسف، كنت شارداً قليلاً."

ردت كريمة بابتسامة ماكرة: "أين كنت يا هذا؟ لم تزرني اليوم."

قال سالم معتذراً: "آسف، كان يومي طويلًا، لكنك كنتي في البالي طوال الوقت، عزيزتي."

نظرت إليه كريمة بحب وفضول وسألت: "مع من كنت يا سالم؟"

أجاب سالم وهو يرفع حاجبيه بتعبير مدهش: "لقد قضيت بعض الوقت في خيمة السيدة زينب مع أبنائها، لقد أكرمتني كما تفعل دائماً. وفي المساء خرجت مع ابن الأمير وزوجته وأخته في نزهة إلى الوادي. آه، كنت سأنسى، لقد هزمتهم جميعاً في لعبة ظامت، يا كريمة، أنا فزت!"

رفعت كريمة حاجبيها بدهشة: "إنها المرة الأولى التي تلعب مع غيري وتفوز، هذا مبشر! أخبرني، لماذا قد يريد أبناء الأمير التنزه معك؟"

هز سالم كتفيه وقال: "لا أدري حقًا، استغربت من رغبتهم، لكنني فقط استجبت لهم."

صاحت كريمة بدهشة أكبر: "أمر غريب!"

تغيرت تعبيرات سالم من الدهشة إلى الاهتمام، وسألها بهدوء: "كيف حالك؟ هل تحسنتِ؟"

ابتسمت كريمة مطمئنة: "أنا بخير، فالسيدة عيشه تهتم بي كثيراً."

سأل سالم بنبرة تقدير: "جزاها الله عنا خيراً. أين هي الآن؟"

أجابت كريمة وهي تشير برأسها نحو الخيمة: "إنها مع أمها." ثم اقتربت منه وهمست: "هل سبق ورأيت السيدة عائشة؟"

هز سالم رأسه نفيًا وقال: "لا، طول الوقت تضع قناعا. ماذا بها؟"

أوضحت كريمة بصوت منخفض: "إنها صغيرة في السن، عمرها عشرين عاماً فقط، وهي طبيبة ماهرة أيضاً!"

عبر سالم عن دهشته: "مستحيل! كنت أظنها في سن أمنا المرحومة!"

ضحكت كريمة وهزت رأسها نافية، مما زاد من تعجب سالم. جلس الاثنان وتحدثا لبعض الوقت عن يومهما، حتى جاءت السيدة عيشة بابتسامة دافئة، رحبت بسالم وطمأنته عن صحة كريمة. شعر سالم بالراحة وقرر أن يبيت هناك حتى الصباح، مستمتعًا بصحبة أخته ودفء الأجواء في هذا المخيم الكبير.

*****

(22)

لقاء الفخامة والمجون. مولاي

تحت سماء الليل الساكنة، حيث تزين النجوم ستائر الظلام السوداء بنقاط ضوء صغيرة متلألئة، كان مولاي يسير بخطى واثقة في أزقة المخيم. القمر المكتمل يلقي بضيائه الهادئ على الطريق، مضفيًا بريقًا فضيًا على كل شيء يلامسه. نعلاه الفاخران المصنوعان من الجلد الناعم يُصدران صوتًا خافتًا على الأرض الترابية، وكأنهما يرويان حكاية أناقة لا تخطئها العين. كان لباسه الأبيض الفضفاض، المصنوع من أرقى الأقمشة، يتماوج خلفه مع كل خطوة، يُبرز فخامته ورقته في نفس الوقت.

رائحة عطره النفاذة كانت تسبق خطواته، تملأ الهواء بعبق يجذب انتباه كل من يصادفه في طريقه، تاركًا خلفه أثرًا لا يُنسى. كان يسير بثبات نحو خيمة صديقه العربي، عائدًا من زيارته للأمير عثمان، مفعمًا بالثقة التي تكاد تنبثق من كل حركة من حركاته.

ومع اقترابه من الخيمة، تلوح له صورة العربي، واقفًا بكل أناقة ورشاقة تحت ضوء القمر. كانت عيناه تتلألآن بابتسامة ساحرة، تجمع بين الوسامة والذكاء والجاذبية. كان يمسك بصهوة جواده بثبات، مظهرًا أناقة طبيعية وكرامة تنعكس في كل تفصيلة من تفاصيل وقفته. كان اللقاء بينهما وكأنه مشهد خيالي، مليء بالهيبة والأناقة في قلب الليل الهادئ.

انطلق العربي في التحية بكل وقار وأدب، "أهلاً وسهلاً بك، يا صديقي الغائب، الذي تشتاق إليه القلوب وتطول الأيام في غيابه."

ابتسم مولاي بأسنانه الجميلة وقال: "صديقي العزيز، يبدو أنك كنت تنتظر وصولي!"

رد العربي: "معك حق، لقد سمعت عن وصولك وكنت في انتظارك."

ضـحك مولاي ومد يده ليجذب العربي ويحتضـنـه، ثم قال: "لقد مضــى وقت طويل منذ رأيتك، آخر مرة، وقد اشتقت لك، أين شيخنه؟"

رد العربي وهو يضـع يديه على كتفي مولاي: "شـيخنه مشـغول الآن، سـينضـم إلينا في وقت لاحق"

تفحص مولاي صديقه وقال "لقد تغير شكلك كثيرا، وأصبحت أقوى.".

ضحك العربي" بالطبع، فقد مضى وقت طويل، وقد أصابني الملل كثيرا في غيابك."

ضحك مولاي قائلا "حسنا، انتهى ذلك مع وصولي."

ابتسم العربي وهو يقوس حاجبيه "هل جئت ببيت الدلال؟"

ضـــحك مولاي عاليا وقال بابتســـامة: "أنت تعرف أنني لا أعيش بدونه، بيتي معي أينما تطأ قدمي."

قال العربي وهو يضحك: "إذاً، دللنا معك يا أخي."

رد مولاي بفضول: "بالطبع، هل هناك من سينضم إلينا؟"

رد العربي وهو يتراجع خطوة للخلف: "لماذا نحتاج لشخص آخر؟ شيخنه سيرافقنا عندما يحين الوقت."

ضحك مولاي وقال: "يبدو أنك لم تفهمني، أخي."

ابتسم العربي بتفهم وقال: "آه، فهمتك الآن، لقد دبرت الأمور قبل وصولك، هم في انتظارنا".

فرقع مولاي بين أصابعه، فحضر عبده الذي كان يتبعه وكان في يده لجام حصان أبيض جميل مزين بسرج بغدادي. ثم ناوله لمولاي، وقال مولاي: "فلنذهب، يا عزيزي العربي."

ركب مولاي حصـانه، وكذلك العربي، ثم سـارا حتى خرجا من المخيم وابتعدا مسـافة ميلين وهما متوجهان نحو الشرق. وبعد قليل، وجدوا في طريقهم جماعة ترتدي الأسود تسير بنفس الاتجاه، فتوقفوا عندهم وكانوا كلهم من النسـاء. قال العربي: "هذه هي رفقتنا الليلة، يا مولاي. أين خيامك؟"

رد مولاي: "إنهم بالقرب من هنا. فلنتقدم."

ساروا مع النساء، وهم يتبادلون الضحكات والمزاح، حتى وصلوا إلى ثلاثة خيام كبيرة، مضاءة بأنوار النيران، ومفروشـة بأجمل وأغلى المفروشـات من الزرابي والمخاد، وخارجها يقف رجال وعبيد وخادمات.

نزل مولاي والعربي عن صـهوة الاحصـنة، واستقبلهما رجلان ضـخمان بالترحيب. وعندما دخلوا الخيمة الوسطى، وجدوا ثلاث فتيات جميلات يرتدين ثيابًا فاخرة ومزينات بزينة ملفتة، وعلى أجسـادهن عبق العطور. عرف العربي أنهن جواري، لكنه تفاجأ لأن بشـرتهن لم تكن كباقي جواري المنطقة السمر، بل كن بِيض البشرة.

تقدمت الجواري نحو مولاي بـابتسـامة ورحبن بـه، وبدأت إحداهن تزيل بعض ثيابه الثقيلة، فجلس مولاي وهن حوله، وكذلك العربي بالقرب منهم. قال مولاي، موجهًا الكلام للعربي: "ما رأيك في بناتي؟"

ضحك العربي بتوتر وهو يحك أذنه وقال: "بناتك! يا لحظتك بهن، إنهن كاللآلئ ما شاء الله!"

ضحكت إحداهن وقالت: "سيدي مولاي، من صديقك هذا إنه لطيف وخفيف الدم."

قال مولاي وهو يمسح خدها بأصابعه: "إنه ضيفنا الليل، أيكن ستقعد في خدمته؟"

ردت التي سَئلت بتسرع: "نعم، أنا أفعل ذلك."

ثم نهضت بعدما كانت تستند على فخذ مولاي وجلست بالقرب من العربي، وابتسمت له وصبت له بعض الشراب، فشرب وشرب مولاي. بعد ذلك، دخلت النسوة اللواتي حضرن مع العربي، وكانت في أيديهن بعض آلات الموسيقى، ثم جلسن في الطرف وأشار العربي ليعزفن، فكشفن عن وجوههن وكن صبايا حسناوات، ثم بدأن في العزف والغناء وسرد الشعر الغزلي الجميل.

نظر مولاي للعربي وقال: "اشتاقت نفسي لهذا النوع من الأجواء وهذه السمفونيات الموسيقية، فهي لا توجد إلا في أرضنا."

ردت إحدى الجواري وهي تمسك يده وتبتسم: "سيدي معك حق، فأصواتهم وعزفهم في غاية الجمال."

ابتسم لها مولاي وطبع قبلة على شفتيها وقال: "هل أعجبتك المعزوفات يا عزيزتي؟ إذا قومي ورقصي لنا وأمتعينا بمفاتنك."

ابتسمت البنت وقالت: "حاضر سيدي."

ثم نهضت، وكأنها غصن شجرة تنبض بالحياة، وبدأت ترقص وتتمايل يمينًا وشمالًا، وتهز وتلعب بذراعيها في كل اتجاه، وتدق برجليها الأرض، وتهز خصرها بإثارة جعلت قلب العربي ينبض بشدة. حيث كان مستمتعًا بجمالها وجمال رقصها، ضحك مولاي عندما رأى العربي بهذا المنظر، متأملاً لذلك الجسم الساحر الذي يتراقص بسحر ويتمايل.

قال مولاي: "عزيزي العربي، ربما لدينا نوع مميز من الموسيقى، لكن ليس لدينا هذا الرقص البديع في بلادنا."

أخذ العربي القدح وشرب منه، ثم قال: "أذهلتني ببناتك يا صديقي، فهن بديعات في كل شيء."

ضحكت الجواري والمغنيات من كلامه، ثم نهض مولاي ووقف، وصاح عالياً: "يا أمبارك، أحضر لنا العشاء."

ثم عاد لمجلسه واستلقى على ظهره، ووضع رأسه في حجر البنت الثالثة، بينما تمتدت ساقيه البيضاوين بوسط المجلس، تتناغمان مع جمال البنات وأنغام الموسيقى. وفي لحظة من السكون، تفاجأ الحضور بسماعهم لصوت هادئ يعزف على آلة موسيقية بلطف، فتركزت أعينهم جميعًا على المغنيات الجميلات اللواتي بدأن في إضفاء رونق خاص على الأجواء بأنغامهن الساحرة.

عندها، قال العربي لمولاي: "أخبرني عن رحلتك وما رأيت، وما أخبار أخيك الأمير؟"

ردّ مولاي وهو يمسك بأنامل جاريته ويلاعبها: "أخي لم أره منذ أعوام، فأنا شخص يحب النساء والمال والتجارة، وأهوى السفر والمغامرات، وهذه أشياء لا تتوفر في حدود القبيلة. لهذا السبب لم أرى أخي عباس منذ سبعة أعوام، لكن حسب ما أعلم من خطاباته إليَّ فهو بخير، مزال يحب الغزو والإغارة على القبائل الأخرى."

ضحك العربي بشدة حتى سقط على ظهره، وقال: "أنتم العباسيين غربين بشكل خاص، تشنون الحروب في كل وقت."

ضحك مولاي وقال: "معك حق، لكنني لا أشاركهم تلك الطباع."

عندها سأله العربي ينظر إلى ابتسامة الفتاة التي بقربه: "وأين كنت طوال تلك السبع سنوات؟"

ردّ مولاي بابتسامة وهو يتناول حبة من العنب من يد جاريته: "بعد وفاة والدي، الأمير السابق للعباسيين، أخذت نصيبي من الميراث واستثمرته في التجارة، ثم ترحلت مع القوافل لأتاجر في العديد من البلدان. مررت بالمغرب والجزائر وتونس ومصر، وعبرت الحبر إلى بلاد الشام، حيث زرت العراق والبصرة ودمشق، وتاجرت هناك كثيرًا، حتى بنيت ثروة عظيمة. ولكنني اشتقت لبلادي، فقررت العودة والعثور على عروس أتزوجها، وآخذها وأستقر معها في قصري في المغرب."

قال العربي وهو يبتسم للفتاة التي تسكب له الشراب: "أصابني الشوق لأكون مثلك، قصتك في غاية اللوعة يا عزيزي. هل جئت هنا لتجد عروسك؟"

ردّ مولاي: "نعم، لقد سمعت عن زهرة بنت الأمير عثمان ومدى جمالها ورجاحة عقلها، لذا أتيت هنا لزيارة الأمير لأخطبها منه أثناء فعاليات التوحيد التي تقام في قبيلتكم."

قال العربي بفضول: "وماذا كان جواب الأمير لك؟"

بضـــحكة خفيفة ردّ مولاي: "لا أظن أنه يرغب بي حتى الآن. فقد طلب مني أن أشـــارك في نهائي بطولة الشجاعة، وقال لي بعد انتهاء البطولة سننظر في شأن الخطبة!"

ضحك العربي وقال: "أمر بديع، سنتنافس غدًا!"

قال مولاي بلا مبالات: "ومن يشارك معنا؟"

رد العربي: "ابن الأمير الثاني عبد الفتاح، ومتنافس عبد من فخذ الكمداني، إنهما المتنافســـان الأقوى."

قال مولاي باســـتغراب وهو يرتفع ليجلس: "لحظة، لكي أســـتوعب الأمر. عبد الفتاح رجل معروف أنه شجاع جبار وشديد القوة، ولكن عبد كمداني وصل للنهائي!"

رد العربي: "إنه ليس عبداً فقط بل طفل في منتصـف عقده الثاني أيضًـا، لكنه خطير وموهوب بشكل غريب!"

اســـتغرب مولاي من كلمات العربي. عنوها دخل شـــيخنه فجأة، فتوقفت المغنيات عن الغناء، والجارية عن الرقص. فقال شيخنه: "سيكون عليكما أن تتحدى حتى يفوز أحدكما."

نظر مولاي إلى شيخنه متفاجئًا، ثم قام مبتسمًا واحتضـنه قائلاً: "صـديقي العزيز شـيخنه، لقد افتقدتك."

ثم قاما بتبادل التحية والضـحكات، وجلسـا. قدمت الجواري الشـراب لشـيخنه، وبعدها صـاح مولاي بخدمته ليحضـروا الولائم. فحضـروا وهم يحملون سـماطين، في كل واحد منهما شـاة مشوية ومتبله ترقد فوق الأرز الساخن، ومصبوب عليها عسل حلو الطعم. بدأ مولاي وشيخنه

والعربي والجواري بالتناول والاستمتاع بالطعام، والجواري يطعمن مولاي بأيديهن وهن في عناق معه، والعربي وشيخنه يضحكان عليه ويقولان: "أنت كما عهدناك تحب الدلال."

قالت إحدى الجواري بصوت عذب: "سيدي مولاي يستحق الدلال، فهو يدللنا أكثر."

ضحكت الأخريات يوافقنها الرأي. بعد ساعة من المرح انتهت الوليمة لتبدأ ساعة أخرى على إيقاع مختلف، حيث أشار مولاي لأحد رجاله ليحضر له زجاجات كبيرة وكؤوسًا من الفضة، وبدأوا يصبون منها شرابًا أحمر. ثم ناولوه للعربي وشيخنه ومولاي والجواري، والنساء اللاتي يعزفن. فشرب الجميع متلذذين بطعم الشراب وقوته. ضحك العربي وقال بكلام مجرور بعدما أفرغ كأسه:

ما زلت تعرف كيف تجد أحسن أنواع النبيذ يا صاحبي. ثم سحب الزجاجة من العبد وملأ كأسه وشربه. ضحك الجميع على فعله، وبعد ذلك بدأت المغنيات بالغناء والعزف.

عندها وقف مولاي وأخذ يترنح ويرقص، لم يكن هذا مجرد رقص عادي، بل كانت تلك لحظة من الحماس والفرح تجتاح الجميع. ضحك الجميع بمزاح وبدأوا يصفقون بحماس مع إيقاع حركاته. وعندما شاهد الجواري تلك البهجة في عيني مولاي، انضممن إليه ببسمات واسعة وبدأن في التمايل بأنوثة وجمال، وسط ضحكات وفرح من الحضور. وبينما كانوا يتمايلون، تحول الجو إلى جو من المحبة والتقارب، واندمجن مع مولاي في تبادل العناق والقبل، وسط إطلالات مشرقة وابتسامات لا تنتهي. وكان العربي وشيخنه يشاهدان كل هذا بانبهار، مستمتعين بمشاهدة المشهد الرائع أمامهم، وهما يشربان من النبيذ بلذة حتى أثرى السكر قلوبهم وبدأ النعاس يغلبهم ويأخذهم إلى عالم النوم والأحلام.

*****

(22)

الجولة الأخيرة

فتح ســالم عينيه مجددًا على ضــوء نهار جديد من حياته، فنزع كمه عن وجهه وجلس. ورأى الطبيبة عيشــه جالســة تصــلي أمام خيمتها، فقام بأخذ إناء فيه ماء كان بجانبه وبدأ يتوضــأ ثم صلى الصبح. وعند انتهائه، قالت له السيدة عائشة: "سالم، كيف حالك اليوم؟"

رد عليها وســط تســبيحه: "أنا بخير، شــكراً لك. ما خطب هذا الصــباح؟ لماذا هناك غمام في الجو؟"

ردت عليه وهي تنظر للسماء: "لا أدري حقاً، أظن أنه ستكون هناك عاصفة رملية."

أومأ لها سالم بالفهم، فقالت له: "هل أنت جاهز؟ ستبدأ المسابقة بعد ساعة."

شعر سالم بالخوف، فهذه لحظة حاسمة من عمره وعليه أن يتجاوزها بالنصر، ولكنه يخشى مما لا يتوقعه من القدر. فقال لعيشه: "لا أدري حقاً، سيدتي، أنا مستعد للمواجهة لكنني مرتبك قليلاً ويعتريني بعض الخوف كذلك."

ابتسمت عيشه تحت نقابها، وقالت: "أنت إنسان عاقل، لهذا تخاف مما تجهله. لكن عليك فقط التحلي بالإيمان وروح المغامرة، وأن تتذكر كل الذين يؤمنون بقدرتك وأن تبذل جهدك من أجلهم. هكذا ستنجح وتحقق ذاتك."

شعر سالم بالراحة إثر كلماتها وقال: "أشكرك سيدتي، سأبذل كل جهدي من أجلكم جميعاً."

*

مضت ساعات الفجر ببطء، وبدأت الشمس تعلو تدريجياً في سماء بنية اللون، ومع كل شعاع ترتفع معه مشاعر الحماس والتشويق، حيث تجمع أفراد قبيلة أولاد شداد بأعداد هائلة أمام خيمة الإمارة، يثيرون الصخب بصفيرهم وهتافاتهم بأسماء المتنافسين.

وهنا، أمام خيمة الإمارة، تقف شخصيات بارزة مثل عبد الفتاح وسالم والعربي، وبجوارهم مولاي في انتظار التحدي، حيث ينظر الجميع بفارغ الصبر إلى الأبطال الذين يمثلونهم. وفي جانب آخر، تتماثل أسرة الشيباني وعائلة العربي بفخر، معبرين عن ولائهم وإصرارهم.

في حين تقف زهرة بجانب أخيها صلاح، وأمها وأقاربهم، يتأملون في التحدي القادم بشغف لا يضاهى، بينما تقف كريمة والسيدة عيشه وزيد مع الجماهير، محفزين اللاعبين بتشجيعهم الحماسي الصاخب.

وكل هذا يحدث في جو مليء بالتوتر والانتظار، حيث يقف الجميع متحمسين ومتشوقين لبدء المسابقة والتي ستشهد اندفاع الأرواح واشتعال الشجاعة في قلوب الجميع.

الجو مشحون بالحماس والتنافسية، حيث يتبادل المشجعون الصيحات والتصفيق بأسماء منافسيهم المفضلين بشغف متوهج. وفي لحظة مفاجئة، عم المخيم صدى ضربات الطبل العظيم، بوم، فتعالت صيحات المشجعين وتصفيقهم بقوة، معبرين عن حماسهم العارم.

وبينما يتزايد الجو من حولهم بالحماس والتشويق، ظهر الأمير عثمان بكل فخر وعزة، يستقبله الجمهور بصيحات البهجة والتشجيع العالي، حيث تتحول هتافاتهم الى هتافات باسم الأمير، وسط جو مليء بالفخر والانتماء والتضامن.

ابتسم الأمير ومد يديه عالياً، فسكتت الجماهير جميعاً وأصغوا لما سيقول. أنزل الأمير يديه وقال بصوته الجهوري: "بسم الله الرحمن الرحيم، اليوم بحول الله وقدرته سوف نقوم باستئناف آخر جولة من مسابقة الشجاعة."

ما إن قالها حتى صاحت الجماهير وازداد صخبهم حتى اهتزت الأرض من قوة الأصوات. أشار لهم الأمير مرة أخرى وهو مبتسم، فسكتوا جميعاً، فقال لهم: "اليوم إن شاء الله سوف تكون الجولة الرابعة على شكل سباق، وهذا السباق سيكون له طابع خاص وهو غير مسبوق في تاريخنا. سيتسابق المتنافسون اليوم من هنا مروراً بوادي "لحنوك" حتى هضبة (الظهر) الغربية. سيكون هناك علم أحمر في أعلى نقطة من الهضبة، وأول من يمسك به سيكون الفائز وسيحظى بالشرف والفخر الذي لا يُقدَّر."

شعر سالم بالخوف فما سمعه عن ذلك الوادي لم يطمئنه، ثم إن الأمير أتبع قائلاً: "هناك أمر آخر شديد الأهمية."

أنصتت الجماهير بإمعان، فقال الأمير: "بالأمس، حل علينا ضيف كبير، إنه شقيق أمير منطقة الحوض مولاي. لقد جاء من أجل الاحتفال معنا، وليجد زوجة تليق بمقامه الكبير.

وكنوع متواضع من الإكرام، اتفقت أنا والشيوخ أن نشركه في الجولة الأخيرة من البطولة."

ما إن قالها حتى صاحت الجماهير بأعلى صوتها، مؤيدة لفكرة الأمير. وقف مولاي ورفع يديه وهو يضحك ويقول: "شكراً، شكراً أبناء قبيلة أولاد شداد."

رفع الأمير يده مجدداً فسكت الجميع، وقال بصوت تملأه الثقة والحماس: "وكتذكير للذين لا يعرفون وادي لحنوك، إنه وادٍ تاريخي تسكنه عائلة من النمور منذ زمن بعيد. لذلك، فليس

هناك أي متنافس مرغم على المشاركة في هذه الجولة، فالمسألة خطيرة، وحقيقة، إنها اختبار للشجاعة والإصرار. فقط من يريد إثبات نفسه والوقوف على قدرته يمكنه المشاركة."

شعر سالم بالرعب مع تتابع كلمات الأمير على مسامعه، فجأة وضع عبد الفتاح يده على كتفه وقال: "لا تنسحب أنت لها، كل هؤلاء الناس يؤمنون بك."

نظر سالم لعبد الفتاح وعندها شعر بنار العزيمة تشتعل في صدره، وأصبح يعلن بقوة: "معك حقًا يا عبد الفتاح، لن أستسلم بعد كل ما خضته"

ابتسم عبد الفتاح بفخر وثقة، في حين تقدم مولاي نحو الأمير باندفاع وقال بصوت ينبض بالحماس: "أنا سأشارك يا حضرة الأمير، لنصنع التاريخ معا!"

ما إن قالها حتى انطلقت جواريه وخدمه بصيحات التشجيع والتصفيق الملتهبة، وكانت الجماهير تتفاعل بحماس شديد، مؤيدة لكلمات مولاي وتشجيعًا له.

ثم، تقدم العربي بثبات وثقة، وهو يضيف بصوت قوي مليء بالعزيمة: "أنا أيضاً لا أفكر في الانسحاب، لنضع بصمة تاريخية في هذه البطولة!"

وبعد ذلك، تقدم سالم وعبد الفتاح ووقفا معهما. قال الأمير: "إذاً لقد حسم الأمر، لا توجد انسحابات. إليكم القواعد: أولاً، لن يكون عندكم أي سلاح، لا بنادق، لا سكاكين، لا سيوف، ولا فؤوس. يمكنكم فقط الاعتماد على مهاراتكم في البقاء واستخدام ما تتيحه لكم البرية."

نظر العربي لسالم وقال في نفسه ساخرًا: "لا نحتاج بندقية فلدينا واحدة حية هنا."

أتبع الأمير: "ثانيًا، أي شخص يتجنب العبور عبر الوادي سيقصى، لهذا سيكون هناك رجال يراقبون حدود الوادي ليتأكدوا من عبوركم للوادي. هذا كل شيء. أما الآن فلديكم بضع لحظات لتستعدوا للبدء، وأتمنى لكم كل التوفيق."

ذهب كل من العربي ومولاي وعبد الفتاح، مستعدين لتحديات المسابقة القادمة. فيما ذهب سالم إلى أخته كريمة والسيدة عيشه، وسرد لهم الوضع بكل دقة، وعندما أشار إلى خطر النمور المفترسة، تجلا القلق في عيون كريمة، فقالت: "هل أنت خائف يا أخي؟ تذكر أنك لست مضطراً للمشاركة، أنا خائفة عليك، حياتك أهم عندنا من الفوز."

لكن سالم رفع رأسه بكل فخر وقوة، وأجاب بتصميم: "لا، لن أستسلم بهذه السهولة، يجب أن أفوز." هذه الكلمات أضفت نبرة من التحدي والإصرار إلى الجو المشحون.

لم تتردد الطبيبة عيشه في دعم سالم، فأكدت بثقة: "إنه مصر على رأيه، لا تحبطيه، هو قادر على الفوز، أنا متأكدة."

سأل سالم بلهفة: " حسنا، سيدة عيشه، كريمة هل هناك أية أفكار قد تفيد."

قالت عيشه: "أظن أنه عليك أنت تحاول تجنب تلك الحيوانات قدر الإمكان."

أتبعت كريمة بعدها: "معك حق سيدتي عيشه، هذا قد يضمن سلامته ربما، لكن ماذا عن الفوز؟ محاولة تجنب الخطر قد تأخره."

بدأت كريمة تفكر بتأني، ثم قالت بحماس متزايد: "سالم، هل تذكر الخطة التي اتبعتها في الجولة الأولى؟"

سالم تفاجأ وعيناه تتلألأ بالفكرة، وهو يجيب بحماس: "نعم، أذكر، لكنها لن تنفع هذه المرة، لو تباطأت سيتباطؤون أيضاً حتى يحافظوا على قوتهم."

أشارت له كريمة ليقترب، وقالت بحماس متزايد: "صحيح، تخمين جيد أخي، لكن ماذا لو..."

دق الطبل العظيم ثلاث مرات كإنذار يدعو لتأهب المتنافسين، وعندما حضر عبد الفتاح ومولاي والعربي ووقفوا على الطريق التي ستأخذهم إلى الوادي، شعر الجميع بتوتر متزايد يختلط بالحماس الملتهب.

سارع سالم من جانب كريمة بعزم لا يلين، وفي تلك اللحظة التي كانت زهرة تأمل أن يلتفت إليها، ولكن سالم استكمل جريه بلا توقف، لكنها لم تيأس، بل أظهرت على وجهها ابتسامة تعبيرية تدل على الأمل والثقة.

عندها التفت سالم نحوها، فتلاقت نظراتهما فلوح سالم لزهرة بالقميص الأبيض في يده بحماسة ولهفة، ثم ارتداه بسرعة فبدت زهرة وكأنها ستطير من الفرحة والتشوق، وصاحت بصوت ملأه الحماس: "موقف يا سالم، فالتفز من أجلي!"

وقف سالم ورفع يديه عاليا وعلى وجهه بسمة ثابتة وواثقة: "بالتأكيد سأفوز من أجلك سيدتي زهرة."

في تلك الأثناء، اقتربت السيدة فاطمة بغضب، وسحبت زهرة بلطف لتعود وبدأت في توبيخها، لكن زهرة لم تفقد ثقتها، بل بقيت تضحك وتشعر بالسعادة الغامرة، مما أضفى على الجو لمسة من الدفء والتفاؤل.

في أرجاء الساحة الواسعة، وقف الأمير أمام المتنافسين، وجوههم مشحونة بالتحدي والحماس، وبينهم أجواء من الغضب والتوتر.

نظر مولاي إلى سالم بغضب متنامي، كان يشتعل في عينيه سخط لم يكن يستطيع كبحه، وأراد أن يفرغه بالسب واللوم، لكنه توقف فجأة عندما سمع صوت عبد الفتاح يقول بصوت مرتفع: "يا سالم أيها الأحمق، كيف نلت مشجعة صعبة المنال كأختي!"

ضحك سالم بلا هوادة، حتى كادت دموع الضحك تنساب من عينيه وهو يرد بسخرية: "لا أدري حقاً يا سيدي، ربما هو حظ جيد فقط."

تبسم عبد الفتاح بابتسامة واسعة، وهو يقول بتحدي وثقة: "أتمنى ألا يخيب ظنكما، لأنني لن أسمح لك بالفوز علي."

فيما كانت هذه الحوارات تجري، ضجر مولاي من وجود سالم، وشعر بالغضب يتسلل إلى قلبه ويملأه بالكراهية، قرر في نفسه أنه لن يسمح لسالم بالفوز.

وفي هذه الأثناء، رفع الأمير يده ثم رفع صوته فوق الجميع، وقال بصوته القوي: "هل أنتم مستعدون؟"

أجاب الجميع بإيجابية، فقال الأمير مشيراً: "سيكون السيد بدري في انتظاركم على التلة، أتمنى لكم التوفيق."

ثم رفع يده مجدداً فسكت الجميع، وقال بجديته العارمة: "استعدوا." وفور ذلك، استعد المتنافسون الأربعة للجري، وعندها أشار الأمير بيده نحو الأسفل وقال "انطلقوا".

*****

(23)

أنفاس محبوسة

بينما كانت التوترات تتصاعد والتحديات تزداد بين المتنافسين الأربعة، خرج صوت الأمير عثمان بقوة محدثاً صدمة في الجميع: "إنطلقوا!"

انفجرت زفير الأنفاس المكبوتة داخل صدور المتنافسين الأربعة، وانطلقوا بأقصى سرعتهم، تحت صيحات الجماهير المشحونة بالحماس والفرحة. هذه المرة، كان سالم يسبقهم إلى المقدمة، يعدو بأقصى ما لديه، وسط تشجيع الجماهير التي كانت تهتف باسمه.

ولكن في لحظة صادمة، تداخلت رجلا سالم فتعثر وطار في الهواء، ليسقط بقوة على وجهه، فصاحت الجماهير بصوت واحد متألمة من سقوطه المفاجئ في هذا الوقت الحرج.

في حين تجاوزه عبد الفتاح والبقية وتركوه ملقياً على الأرض يصرخ ويتألم، أراد بعض الرجال الإسراع إليه لمساعدته، لكن الأمير صاح بهم ليتركوه وشأنه، فالسباق لم ينته بعد، وكل منافس يجب أن يتحمل عواقب قراراته.

انقلب سالم على وجهه ثم إنه رفع نفسه ببطء متألما حتى وقف، عندها علا صياح الجماهير والهتاف باسمه (سالم). نظر سالم فوجد منافسيه قد غابوا عن الأنظار مبتعدين. فبدأ يعرج قليلا للأمام يتبعهم والهتافات خلفه وهو يتقدم ويزيد في سرعته متألما حتى استطاع أن يجري مرة أخرى.

كانت زهرة تشهق بصعوبة عندما رأت سالم يتعثر ويسقط على الأرض، وهي تتلوّى في مكانها بقلق وتوتر. تشتدّ وتيرة ضربات قلبها، وتتزايد الأنفاس المتقطعة وسط هدير الجماهير الملتهبة بالحماس. لكن في تلك اللحظة المشحونة بالتوتر، تُنفجر زفرات صرخات التشجيع بقوة من فم الجماهير المتوترة، معلنة عن وقوفها القوي مع سالم في لحظته الصعبة.

فجأة، تسللت أصوات الضحك إلى مسامعها، وأصابها الغيظ والغضب. نظرت إلى يمينها لترى من يضحك، فتفاجأت برؤية زيد وكريمة والسيدة عيشه يضحكون.

أصاب زهرة الذهول، فتساءلت في نفسها لماذا يضحكون في هذا الوقت الحرج؟ ولكن سرعان ما فهمت الأمر، ووضعت يدها على فمها مفاجأة. عندما رأت سالم قد اختفى عن الأنظار، وعرفت أن سقوطه جزء من خطته للفوز. تحول تلك الخواطر المتقاطعة في عقلها إلى ضحكات ترتسم على شفتيها، فاقتحمت البهجة قلبها المثقل بالقلق. تنظر حولها لتجد أهلها يتفاعلون بنفس الحماس، وعندها اجتاحتها روح الإصرار والتحدي. داعمة لصديقها.

✻

خرج سالم بخطوات هادئة من بين طيات المخيم، وكأنما يتمايل على وتيرة خاصة به. ومع كل خطوة يقطعها، تراقب عيناه الشاردة حوله، متلهفة لرؤية أي علامة تدل على وجود الآخرين. لكن الصمت الحالك الذي يلف المكان لم يكن يعكس سوى هدوءاً غريباً.

وفي لحظة من الفكاهة الخفية، وجد نفسه يضحك بصوت مرتفع، كمن يتفوه بسرّه في نقطة ما بين الذكريات والخيال. وحينما توقف عن الجري، كانت كلمات كريمة تتردد في أذنه كاللحن الهادئ.

"صحيح، تخمين جيد يا أخي، لكن ماذا لو أصبت ولم تستطع الجر؟" ردت كريمة.

"لكن كيف ذلك؟" سأل سالم بدهشة.

"ستتظاهر بذلك، هذا كل شيء. هكذا لن ينتظروك. عندها سيدخلون الوادي قبلك وتتبع أثرهم. وسترى إذا واجه أحدهم مشكلة، فتتجنب تلك المشكلة وتخرج من الوادي وتفوز معتمدا على سرعتك"، شرحت كريمة بضحك. وهي تتحرك بظرافة أمام سالم

ضحك سالم وقال بإعجاب، "أنت ذكية فعلاً يا كريمة، لم تخطر لي فكرة كهذه."

تدخلت عيشة وهي تلاحظ ثغرة في الخطة "ماذا لو وجد حيوانا مفترسا وهو وحده؟"

"عليه الاستعانة بقوته ومهارته في الرماية بالحجارة لينقذ نفسه. الأمر متروك لقدته على النجاة فكل هذه التخطيط قد تضفي القليل من الحظ، لكنه لا يضمن سير الأمور كما نشاء." أجابت كريمة بثقة ممتزجة بالقلق.

ابتسم سالم وهو يتذكر آخر حديث له مع كريمة، ثم دعا لنجاح الخطة، وبعدها قال: "كريمة، سيدتي زهرة، السيدة عائشة، زيد، إخوتي، أبي، وكل من يؤمن بي، سأفوز من أجلكم جميعاً". ثم نظر إلى آثار منافسيه وانطلق يجري بسرعة خلفهم.

انطلق سالم ولم يتوقف عن العدو بكل قوته، حتى وصل إلى غابة كثيفة، فزادت حماسته وتركيزه على إتباع الآثار. بينما يتقدم داخل الغابة، يلاحظ بعض النتوآت الصخرية الضخمة والأحجار المبعثرة، التي يأتي بها الفيضان وقت مروره بالوادي. مما يدل على دخوله وادي لحنوك. يخفض سالم سرعته ويتقدم بحذر، يلتقط كل حجر صغير في طريقه، وفجأة سمع صوت صراخ رجل، فاقشعرت بشرته وارتعشت عظامه من الخوف، وبينما يقترب لاحظ شجرة واتجه نحوها بحذر شديد، التقط غصناً غليظاً من تحتها، وتقدم بحذر نحو مصدر الصوت، فجأة خيل له أنه رأى حركة.

وبسرعة، استخفى سالم في ظلام الغابة، وقلبه يتقلب في فمه من شدة الخوف، وأنفاسه تتعالى دون أن يشعر. بينما يحاول التركيز، حاول سالم أن يتمالك نفسه، يدرك أنه لن ينجح في الوصول للهدف وهو في حالة من الذعر. أخذ نفساً عميقاً، ثم نظر حوله في محاولة للبحث عن أي دليل قد يساعده على تحديد الاتجاه الصحيح. عندها اكتشف أن الأثر يشير إلى اتجاهات متعددة، مما دله على أن منافسيه قد تفرقوا. عندها قرر اتخاذ قرار بتباع أحد الآثار بحذر. وبينما يمضي قدماً، تمر اللحظات وهو يتحرك بلا رؤية واضحة بين جذوع الأشجار والصخور. فجأة، سمع صوتاً مرعباً يقترب، فسارع نحوه ليتفاجأ برؤية العربي مستلق على الأرض، وفقه ضبع ضخم يقوم بمهاجمته بعنف، ورأى أن العربي قد أصيب بخدوش كثيرة

بسبب العراك. ويحاول بكل قوته الدفاع عن نفسه، لكن الإرهاق اجتاح جسده، ليجد نفسه عاجزاً عن التصدي للهجوم الشرس.

وفي لحظات الضيق هذه، اختبئ سالم، وقلبه ينبض بشدة من الخوف. يفكر في كلام كريمة ويدرك أن عليه الابتعاد عن هذا المكان. فتقدم بخطى سريعة، يجتاحه الفزع، لكن صوت معاناة العربي يدق ناقوس الخطر في قلبه ويستنزف ضميره. عندها تراجع سالم بقلب محتلم فستل سلاحه من جيبه، يتنفس عميقًا، ليستهدف الضبع الهائج الذي يتحرك أمامه بعشوائية. وبتلويحة متقنة، انطلق حجر حاد من يد سالم، لكنه فشل في الوصول إلى هدفه. زفر سالم وهو يتمركز ويقرر التركيز بشكل أكبر، لأن العربي بحاجة ماسة إلى مساعدته. وفي لحظة حاسمة، يطلق الحجر بقوة فتاكة، يخترق الهواء بسرعة مذهلة، وبدقة فائقة أصاب عين الوحش واستقر فيها، ففر الضبع هاربا بألم، شعر العربي بالارتياح بعد أن رآى الوحش الذي كاد يفتك به هاربا. نظر العربي متفقدا الفاعل.

وفي الوقت نفسه، انتشل سالم نفسه وهرب بأسرع ما يمكن، وختفي بين أشجار الغابة في سباق محموم نحو الأمان.

فرحًا بنجاحه في إسقاط الضبع، يتسارع نبض قلب سالم وهو يتجول جريا في الغابة. يشعر بفخر وراحة داخلية لتحقيقه لهذا الإنجاز الكبير. يبث في نفسه الثقة والإيمان بقدراته، ويصرخ بداخله "أحسنت، أحسنت يا سالم، أنت الأفضل! لقد أثبتت قوتك وشجاعتك، أصبت الوحش وأنقذت حياةً، أنت حقًا بطل."

يستمتع بالشعور بالقوة والحماس الذي يتدفق مع كل ضربة قلب. يسرع في الجري بين أشجار الغابة، ويقفز برشاقة فوق الصخور والأحجار، متغلبًا على كل عقبة بسهولة وثقة.

وبعد ساعة من الجري المتواصل، قرر سالم التوقف قليلاً ليلتقط أنفاسه ويستعيد قواه للمتابعة. اختبئ تحت أغصان شجرة قصيرة وكثيفة، وبعد بضع دقائق من الراحة، شعر بتحسن في حالته واستعادة قوته. نهض بحذر وخرج بهدوء من تحت الأغصان، متأكداً من عدم جذب انتباه أي شخص أو حيوان يمكن أن يكون في المنطقة. يتحسس الأرضية بخطوات هادئة،

ويتفحص الأجواء بعينين متأهبتين. في هدوء تام، يتعهد لنفسه بالإسراع في السير، مدركاً أن الآخرين قد يتقدمون عليه، وأن عبد الفتاح لن توقفه العقبات.

فجأة ودون سابق إنذار، لامس شيء كتف سالم، فانتفض وفزع سالم، ثم قفز إلى الأمام بسرعة وابتعد عدة خطوات. ثم نظر خلفه فرأى العربي واقفاً، وآثار الخدوش على رقبته وأذرعه. وبينما كان سالم يحاول أن يتمالك توتره وهلعه، قال العربي بصوت مهدئ: "لا تخف يا سالم، لن أؤذيك، أتيت لأشكرك على مساعدتك."

وقف سالم متوتراً ومذعوراً، وأجابه: "لا داعي للشكر سيدي، كنت في ورطة فتحتم علي مساعدتك."

أومأ له العربي بالشكر، عندها قابله سالم بعرض كتفيه وانطلق يجري بسرعة. وعندما رآه العربي، بادر هو أيضاً بالانطلاق خلفه، لكنه عجز عن اللحاق به، فحجمه الكبير يبطئ من حركته، في حين تقدم سالم بسرعة حتى غاب عن نظر العربي.

في وادي "الحنوك" الكبير والعريض والمليء بالأشجار، يسهل على أي شخص أن يتوه في عرضه. وبعد ساعة من الجري، توقف سالم مرة أخرى ليلتقط أنفاسه، وقال في نفسه متحيراً: "هذا غير معقول، أنا أجري منذ ساعة، ولم أخرج من هذا الوادي بعد. لابد أنني تهت عن اتجاه التلة."

قرر أن يجد مكانًا مرتفعًا ليرى وجهته من فوق، ولحسن حظه وجد مرتفعًا صخريًا كبيرًا بالقرب منه. أسرع سالم ليتسلق المرتفع حتى أصبح يرى فوق أشجار الوادي، وتابع تسلقه حتى وصل للقمة، لكنه أصيب بخيبة أمل سريعة، حيث لم يكن بإمكانه رؤية ما هو بعيد حتى الأفق. فالسماء والأرض قد غطا عليها الغمام الذي يزداد كثافة مع انقضاء كل ساعة من هذا اليوم.

ثنى سالم سبابته بين أسنانه وعضها قليلاً وهو يفكر، فقال في نفسه: "ماذا علي أن أفعل الآن؟ كريمة لم تتوقع أن أتوه، علي أن أعتمد على نفسي من الآن، لكن ليس لدي وقت، فالآخرون لن يتوقفوا، كما أنهم أدرى مني بهذه الأرض أيضاً."

جلس سالم على ركبتيه فوق تلك القمة، يفكر في حل ويقول في نفسه: "كيف سأعرف وجهتي؟ إن وادي لحنوك يقع غرب المخيم وبعده توجد تلة الظهر."

فكر قليلاً وبعدها نظر إلى الشمس، فأصابه الإحباط مجدداً لأنها كانت مستترة خلف الغمام، ولن يمكنه الاعتماد على الظل في تحديد الاتجاهات. زفر سالم بنفاذ صبر وجلس في صمت يحاول أن يهدأ لكي يجد حلاً لهذه المشكلة.

أغمض سالم عينيه في صمت، وهو يستمع، متأملاً في الأصوات حوله لعله يهدأ ويفكر بشكل أفضل، فسمع تغريد الطيور ونباح الكلاب وأزيز الصراصير واحتكاك أوراق الأشجار التي تتراقص مع الرياح، عندها حل سالم عينيه وهو مبتسم كما لو أنه خطرت في عقله فكرة ذهبية أخرى، ثم نهض واقفا ونزع قميصه بسرعة وهو يردد: "إن مع العسر يسرا."

وبعد ذلك مد يده وأسدل القميص، لينساب مع الرياح مرفرفاً عن يساره.

فقال سالم في نفسه: "الرياح تهب منذ الصباح من جهة الشرق والقميص يتحرك نحو اليسار، إذا هذا هو الاتجاه الغربي."

وقف سالم، وهو ينبض بالحماس، منشرح الصدر، ينظر نحو الغرب ويشير بإصبعه بقوة نحو الغمام، وهو يقول في نفسه بنبرة حازمة: "التلة ستكون خلف هذا الغمام، لا بد لي من الوصول إليها بأي ثمن. أتمنى ألا يكون الآخرون قد سبقوني."

انطلق سالم من أعلى المرتفع بسرعة، تتالت قدماه تنزلقان نزولا إلى الأسفل حتى استقرتا على الأرض برهة، ثم انطلق مسـرعا في اتجاه مجهول. لكن لم يمضِ على انطلاقه سـوى لحظات قليلة حتى أوقفه صوتٌ مبهمٌ يُلفت انتباهه، فأبطأ خطواته وألقى نظرةً خلفه، ليجد شخصًا يناديه بصوتٍ هامسٍ: "لا تُسلك هذا الطريق."

*****

(24)

النصر لي

وقف عبد الفتاح يلتقط أنفاسه، مستنداً إلى عمود خشبي ملطخ بالدماء مغروس بين أضلاع أحد نمور وادي لحنوك، الذي فارق الحياة لتوه. نجح عبد الفتاح في هزيمة النمر بعد معركة شرسة، تركته مصاباً بجروح عميقة، ولكن قوته كانت كافية لتحمل الأذى.

سحب عبد الفتاح العمود من صدر الوحش، ثم ركل الجثة برجله، متحدثاً بانتصار: "حيوان مشؤوم، كان يجب أن تفر مني وتنقذ نفسك حينما رأيتني." بعد لحظات من الصمت، ابتسم بفخر وأضاف: "الآن سيُذكر اسمي كقاتل النمور، ليس اسمك يا بدري، الشيخ الحكيم."

وبينما كان عبد الفتاح يتأمل في الصمت، أخذ يتنبه فجأة لصوت خفي لأقدام ترتسم على التربة الرملية. رفع نظره بحذر ليرى العربي يتقدم بسرعة نحو التلة. دون تردد، سارع عبد الفتاح ليتبع خطى العربي، يتسابق وراءه بسرعة مذهلة حتى أصبح على مقربة منه، ثم صاح بصوت يملأ الأفق: "النصر لي، يا عربي! تنحى عن طريقي."

استفز غضب العربي بكلماته، فزاد من سرعته، ورد بحماس: "لا، اليوم لن تحقق النصر يا عبد الفتاح. لن أدعك تحصل على ما يليق بي."

غادر الاثنان الوادي، يجريان بأقصى سرعتهما، وبينما كان العربي يبذل جهده الكامل ليحافظ على تفوقه، كان عبد الفتاح ما زال يشق طريقه وهو يعاني من تعبه بعد مواجهته الشرسة مع النمر.

وبينما هما يتسابقان، للوصول إلى قمة التلة، انتبه بدري فجأة عندما سمع صوت أشخاص يتحدثون خلف ستائر من الغمام والغبار.

كان الصـوت ينبعث من جهة وادي لحنوك. فوراً، عرف بدري أنهم المتنافسـون، فقال للرجال الذين كانوا برفقته على التلة: "المتنافسون قادمون، استعدوا."

وما مرت سـوى لحظات حتى بدا لهم ظلان ينطلقان بسـرعة من داخل الغمام، صـعوداً على التلة، وبعد لحظات قليلة، تبين لهم أنهما عبد الفتاح والعربي. صـاح الرجال الذين كانوا مع بدري باسم عبد الفتاح حين رؤيتهما، وبدأوا في تشجيعه بحماس. ومع ذلك، كان العربي وعبد الفتاح يتباطآن وهما يقتربان من القمة بسبب صعوبة الجري صعوداً على التلة.

وبينما هما كذلك، خرج مولاي ببراعة فائقة، مسرعاً من داخل الغمام، يجري بأقصى سرعته. وما مرت إلا لحظات حتى تدارك كلا من عبد الفتاح والعربي، فتجاوزهما بسـرعة متقدماً نحو العلم. لكن عبد الفتاح كان يرفض أن يخسـر بهذه البسـاطة، لذا زاد من وتيرته، متجاوزاً العربي، حتى لحق بمولاي، فصار الاثنان يجريان بشكل متوازٍ صعوداً.

الغضب يعتري كلاً منهما، وبدأ الاثنان بدفع بعضهما البعض ليزيح أحدهما الآخر. وعبد الفتاح يقول: "ابتعد أيها الأحمق، النصر لي."

رده مولاي بغضب وهو يدف عبد الفتاح بمرفقه "ليس مقدرا لك الفوز اليوم أيها التافه."

وفجأة، تشـابكت رجليهما، وهما في الاشـتباك يتزاحمان، فانزلق الاثنان متعثرين وسـقطا بقوة على وجهيهما، محدثين صوتاً مدوياً يملأ الأفق.

عندها، وبكل استقلال، تجاوز العربي الاثنين نحو العلم، ثم قبض عليه بقوة وسحبه من الأرض وهو يركض ويصيح بصوت عالٍ، "أى!"، محتفلاً بانتصاره.

وقال بصوت قوي، وهو يلوح بالعلم "نعم، فعلتها، وأخيرًا فعلتها، أنا العربي، أنا الفائز، أى!"

ابتسم بردي وصفق للعربي، قائلاً: "مبروك لك يا إبن الفرفار، لقد فزت بجدارة."

نظر العربي نحو بدري ثم حول نظره نحو عبد الفتاح ومولاي، ثم ابتسم بانتصار، وفخر قائلاً: "شكراً لك يا سيد بدري، بالطبع فزت بجدارة، فهذين لا يصلحان لمواجهتي."

نظر كل من مولاي وعبد الفتاح للعربي وهو يصـــيح مســـتمتعًا بنصـــره. فقال عبد الفتاح باستهزاء: "يا لك من محظوظ يا عربي."

نهض مولاي وضحك، ومد يده لعبد الفتاح، قائلاً: "لقد استحق النصر، آسف يا سيد عبد الفتاح للتسبب بخسارتك."

كشر عبد الفتاح وأزاح يد مولاي من طريقه، ثم وقف وتقدم نحو القمة، فتلقاه بردي بوجه قلق، وقال: "عبد الفتاح، هل أنت على ما يرام؟ من أين لك بكل هذه الجروح؟"

نظر عبد الفتاح لنفسه، ولم يكن قد انتبه بعد لجروحه، ثم قال: "هذا من أثر قتالي مع أحد نمور الوادي، كان علي أن أنزع منك لقب قاتل النمور. لهذا تأخرت، ولا تقلق، أنا بخير."

نظر له العربي وقال بود: "أنا فزت في البطولة، لكنك فزت ضـد الموت، أنا أقدرك حقاً يا إبن الأمير، لقد رأيتك قبل أن تجهز على ذلك النمر، كنت لأموت لو كنت مكانك."

قال مولاي للعربي ملاحظا: "ومن أين لك بهذه الجروح أنت الآخر؟"

رد العربي وهو يتفحص جروحه: "إنها آثار مخالب أحد الضـــباع، لقد كان قريبا من الإجهاز علي لولا ذلك العبد سالم، لقد أصاب الضبع بحجر في عينه وأنقذني."

قال عبد الفتاح بقلق: "على ذكر سالم، كيف تأخر كل هذا الوقت؟"

رد عليه بدري: "معك حق، لقد تأخر كثيراً، توقعت أن يصل قبلكم جميعًا!"

قال مولاي: "لابد أنه تاه في الوادي، فنحن بالكاد خرجنا بسبب هذا الغبار الذي يملأ الجو."

قال بدري: "سننتظر وصوله، وبعدها نعود للمخيم."

أومأ الجميع بالإجابة، وجلسوا في انتظار سالم، ولكن عبد الفتاح كان قلقًا في داخله على صديق أخته، ويدعو ألا يكون قد أصيب بمكروه.

*****

(25)

الاحتفال بعد الظهر

في مخيم قبيلة أولاد شـــداد، حيث كانت الرمال تتطاير في الهواء كالأشـــباح الهائمة، غطت العاصفة الرملية كل شيء منذ ساعات الصباح الباكر، حتى بدأت تفقد قوتها مع اقتراب ساعات الظهيرة. كان المخيم في حالة ترقب، القلق يشوبه التلهف، إذ كان الجميع ينتظر بفارغ الصبر نهاية هذه العاصفة المرهقة التي حبست أنفاسهم وجعلتهم يستشعرون كل دقيقة تمر بثقلها.

ومع انقشـــاع آخر ذرات الرمل في الأفق، بدأت الحياة تعود تدريجياً إلى جنبات المخيم. كانت الوجوه تتوجه نحو الجانب الغربي، حيث تترقب العيون بلهفة ظهور المتنافســين العائدين من وادي لحنوك. كلما اقتربت الساعة، ازدادت الحشـود في كثافتها، متلهفةً لالتقاط أول لمحة من العائدين.

كان الجو مفعماً بالحماس والبهجة، يتردد فيه صـــدى قرع الطبول بعنفوان، وتعزف المزامير بمرح، مختلطة مع أصوات آلات موسيقية أخرى تتناغم مع بعضـها، لتخلق جواً من الاحتفال الذي يتسلل إلى كل زاوية من زوايا المخيم. وبينما كانت النساء تصفق بأيديهِنّ بإيقاعٍ متناسق، ترددن أهازيج تغمرها الفرحة، كنَّ يرقصـــن في حلقات دائرية، يُحيين الروح الجماعية التي جمعت القبيلة في هذا اليوم.

أما الأطفال، فكانوا كعصـافير الفرح، يركضـون بين الجموع، يلعبون ويمرحون، وقد أخذتهم الحماســة لدرجة أنهم بدأوا في إحداث مقالب طريفة بين الناس، مما أضـفى مزيدًا من البهجة على الوجوه المحيطة بهم. كان كل شـــيء ينبض بالحياة؛ الهواء المشـبع برائحة الصـــحراء، ونســمات الرياح التي أخذت تهدأ تدريجياً، تُدخل إلى النفوس شـــعوراً بأن اليوم الذي شـــابته العواصف قد أوشك على الانتهاء، وأن مغامرات جديدة تلوح في الأفق.

الشـعراء لم يفتهم هذا المشـهد، فأخذوا يتنافسـون بدورهم في إلقاء قصـائدهم التي كانت بمثابة وقود يُلهب الحماس في قلوب الحاضـــرين. كـانـت كلمـاتهم تتردد في الأجواء كـأغـانٍ تتغنى

بالشجاعة والمجد، بينما الكل ينتظر بفارغ الصبر ظهور المتنافسين المنتصرين، ليحملوا لهم أخباراً قد تظل محفورة في الذاكرة لسنوات قادمة.

في هذا المشهد، كانت القبيلة بأسرها تبدو كما لو أنها تتنفس كجسد واحد، تتشارك البهجة والترقب، وتنتظر ما سيحمله الغد من تحديات ومغامرات جديدة، بينما تتراقص ظلال الشمس المحتضرة على رمال الصحراء الذهبية.

في لبسها الراقي، كانت فاطمة، زوجة الأمير عثمان، تتجول بين الحشود المتدفقة في ساحة الاحتفال. وبجانبها، يلتصق صلاح، ابنها الكبير، بينما تحاول السيطرة على غضبها المتصاعد. وهي تبحث عن ابنتها زهرة، كان يلتهب قلبها بقسوة لا توصف.

في الوقت نفسه، كانت كريمة، الفتاة الصغيرة ذات الجمال المتوسط، تسير بخطى ثابتة بجانب السيدة عائشة وصديقها المخلص زيد. وسط هذا الزخم الضخم من الناس، كانوا ينبشون عن مكان مناسب لاستقبال الشاب الوسيم، سالم، بينما تعلو أصواتهم بالتصفيق والهتافات، محاولين استقطاب انتباهه بين الجموع الضاجة عند وصوله.

وسط هذا الزحام الهائل من الناس، كانت زهرة تسير بين الحشود، تمسك بيد مريم، زوجة عبد الفتاح، وبياني برفقتهما، وفيما كانوا يتقدمون نحو مقدمة الحشد، استفسرت مريم وهي تشعر بالتعب، "هل اقتربنا؟ لقد تعبت ولا أستطيع المضي قدمًا."

أجابت زهرة بابتسامة، بعدما التفتت لتطمئن على صديقتها، وبدأت تسير للخلف، "إصبري يا مريم، إننا قريبون، أليس من المثير استقبال عبد الفتاح؟"

ردت مريم بصوت يحمل شيئًا من الإرهاق، "بالطبع أنا متشوقة، ولكنني أخبرتك أن الأمر صعب علي الآن."

ابتسمت زهرة وهي تنظر نحو بطن مريم، أرادت أن ترد، وفجأة، اصطدمت زهرة بشيء خلفها، فتعثرت وسقطت على قفاها بقوة، شعرت بالدوار يجتاحها. عجلت مريم وبياني لمساعدتها، وعندما استقرت زهرة، وجدت نفسها بالقرب من كريمة، تنظر إليها بقلق.

"هذه أنت يا كريمة،" قالت زهرة بلهفة.

ردت كريمة بتكبر، وقد عرفت أنها زهرة، "بالطبع أنا، هذه المرة الثانية التي تسقطين فيها بسبب سيرك إلى الخلف."

كشفت زهرة عن وجهها وابتسمت، ثم قالت بضحك "معك حق، هكذا التقينا قبل أيام، لقد ارتطمت بأخاك سالم حينها."

قالت السيدة عائشة بقلق "آنسة زهرة، هل أنت بخير لقد سقطتي بقوة."

ردت زهرة بلطف وهي تبتسم، "أنا بخير سيدتي، شكراً، لكن من أنت، وكيف عرفتي اسمي؟"

ردت كريمة، وهي تشير بيدها إلى عيشه "هذه الطبيبة عيشه، بنت الشيخ أحمد، شيخ فخظ أولاد جلفون."

قالت زهرة وهي تنظر لعيشه، "سررت بالتعرف عليك سيدتي عيشه."

ضحكت عيشه وهي تهز رأسها نفياً، وقالت، "لا تناديني بسيدتي، لست سيدة بعد، ما زلت آنسة."

ردت زهرة، وهي تشعر بالذهول "آسفة، لم أعرف ذلك بسبب قناعك ومظهرك القوي."

قالت كريمة، بتأييد"معك حق يا بنت الأمير، حدث معي نفس الأمر عندما رأيتها لأول مرة."

ضحكت عيشه على كلامها، في حين تقدم زيد ووضع يده على رأس كريمة، "كريمة، توقفي عن التحدث للكبار، أظهري بعض الاحترام واصمتي في حضرة بنت الأمير."

قالت زهرة وهي تضحك، "دعها وشأنها من فضلك، إنها صديقتي."

ابتسم زيد والتزم الصمت، فقالت عيشه بصوت متأنٍ محاط بالهدوء، "سيصل المتنافسون بعد لحظات، علينا أن نجد مكانًا مناسبًا لنتمكن من رؤيتهم، فالحشد هنا كثيف جدًا."

وافق الجميع بصمت متحمس، وتقدموا بحذر متجهين نحو مقدمة الحشد. هناك كان الجو ملبدًا بالضجيج والحماس، ولم يمر وقت طويل حتى دق الطبل بقوة، فسكتت جميع الأصوات المحيطة. تقدم الأمير عثمان بجلال وكبرياء أمام الحشد وهو على صهوة حصانه، وبصوت ملؤه السلطة قال: "لقد تأخر المتنافسون قليلًا بسبب العاصفة الرملية، لكنهم سيظهرون هنا بعد لحظات، إن شاء الله."

عادت الجماهير لصخبها وموسيقاها بعد أن صمت الأمير، وظلوا مستمتعين بالاحتفال حتى حلول العصر. بدأ البعض بالانسحاب لأداء الصلاة، بينما استمر الآخرون في الغناء والاحتفال. وفجأة، دق الطبل العظيم مرة أخرى، فتوقفت الأحاديث وانتبه الجميع بترقب.

تقدم الأمير ورجاله، وكذلك الشيخ الشيباني والشيخ أحمد والشيخ الفرفار أمام الناس، بعد أن لمحوا فارساً يقترب من أسفل التلة. وبمرور لحظات، تكشّف أن الفارس هو العربي.

شعر بعض الناس أنه ربما كان الفائز، لكنهم لم يظهروا أي تفاعل؛ فقد كان بمفرده. وعندما وصل إليهم، أسرع إليه والده الفرفار، مذعورًا بسبب الجروح التي كانت تغطي جسده. وعندما وصل إليه، سأله بلهفة مشوبة بالخوف: "هل أنت على ما يرام يا عربي؟"

ابتسم العربي وأجاب بصوت متعب: "نعم، أنا بخير، لا تقلق عليّ، يا أبي."

توجه الأمير نحو العربي وسأله بجدية: "كيف كانت المسابقة يا ولدي العربي؟ ومن هو الفائز؟ وأين بقية رفاقك؟"

نظر العربي نحو الأمير بعيون مثقلة بـالحزن والإرهـاق، ثم قـال: "لقـد كنـت أنـا هو الفـائز، حضرة الأمير."

رد الأمير بهدوء: "مبروك لك، أحسنت. وأين البقية؟ لماذا تأخروا عنك؟"

صمت العربي قليلاً، ثم استدار ببطء ونظر نحو الشيخ الشيباني الذي كان يقف خلف الأمير، وقال بصوت مبحوح: "سالم، عبد الشيخ الشيباني، لم يخرج من الوادي."

كلمات العربي كانت كالصاعقة على مسامع الشيخ الشيباني. شعر كأن الأرض تهتز تحت قدميه، وأسرع نحو العربي، أمسكه من ذراعيه بقوة وهزه بانفعال مكتوم، وقال بصوت مليء بالرعب: "ماذا تعني بأنه لم يخرج؟ ماذا حدث لولدي؟ أخبرني!"

العربي، وقد ظهر عليه الارتباك والتردد، أجاب قائلاً: "خرجنا جميعًا من الوادي في وقت مبكر قبل العاصفة الرملية، لكنه لم يخرج."

سكت العربي قليلا وهو ينتقي كلماته التالية، أتبع: "انتظرناه حتى انتهت العاصفة، لكنه لم يظهر. فقرر بردي أن يذهب للبحث عنه، وبرفقته عبد الفتاح ومولاي وبقية الرجال. وأعطوني الحصان وأخبروني أن آتي لأبلغكم بما جرى."

تسمرت أطراف الشيخ الشيباني، وكأن جسده قد تحول إلى حجر. ثم سقط على ركبتيه، وبدأت الدموع تتساقط من عينيه كالسيل، وهو يردد بمرارة: "ولدي سالم... ولدي سالم... ولدي سالم..."

في تلك اللحظة، تملكت الرعشــة أجســاد الأمير والشــيخين الآخرين، والعربي وبقية الرجال الحاضـرين. كانوا جميعاً يدركون عمق الحزن الذي يعتصـر قلب الشـيخ الشـيباني، فالاعتراف بسالم كابنه كان بمثابة كشف لسر عائلة الشيباني الذي ظل مخفياً لسنوات.

لكن القلق الأكبر الذي سرى في قلوب الجميع، وحتى بين الجماهير الحاشدة، كان بسبب سؤال واحد غمرهم جميعاً بالرهبة: ماذا حدث لســالم؟ هل لا يزال على قيد الحياة، أم أن يد المنية قد قبضــت عليه في أغوار وادي لحنوك؟ كانت الإجابة بعيدة، غامضــة، تحلق فوقهم كســحابة سوداء، تثير الرعب والتساؤلات التي لن تجد لها جوابًا قريبًا.

تمت بحمد لله

إهداء

لأصـدقائي الأعزاء، الذين يكونون دائماً شـعلة الإلهام في حياتي، والذين يثقون بقدرتي على تحقيق الأمور العظيمة، هذا الإهداء يأتي من أعماق قلبي:

"إلى أصـــدقـائي الرائعين، الـذين يجعلون كـل يوم من رحلتي الإبـداعيـة مميزًا بوجودهم ودعمهم اللامحدود. أنتم الســـر وراء كلماتي، والدافع وراء تحقيقي لأحلامي الأدبية. شـــكراً لكم على ثقتكم الكبيرة وإيمـانكم بقدراتي. هذه الرواية تعود لكم، كما تعود كل إنجازاتي. لنســـتمر ســـوياً في خلق العبقرية وتحقيق النجاح. بالله وبكم، كل شيء ممكن.

في أقصى غرب منطقة أطار التابعة لآدرار، استمتع شاب وهو يحتسي من قِربة الماء، وهو يدرك أن الرحلة ما زالت طويلة. حمد الله وهو يجلس على ظهر مركوبه، ثم التفت إلى سيده الذي كان يسير برفقته، وسأله بصوت هادئ، "سيدي، كم بقي من المسير؟"

رد الرجل دون تردد، "حوالي عشرة أيام. هل أنت مستعد للمتاجرة؟" لم يرد الشاب على الفور، بل نظر بعيدًا كأنه يستشرف المستقبل.

فرأى الرجل تركيز الشاب العميق وسأله بفضول، "ماذا هناك؟" أشار الشاب بيده، فتبعته عينا الرجل، ولكن لم يستطع رؤية ما كان يشير إليه. "هل ترى ما أراه يا سيدي؟" ألقى الشاب هذا السؤال بصوتٍ مليء بالغموض، مما جعل الرجل يتساءل عن ماهية هذا الشيء الغامض الذي لم يستطع رؤيته.